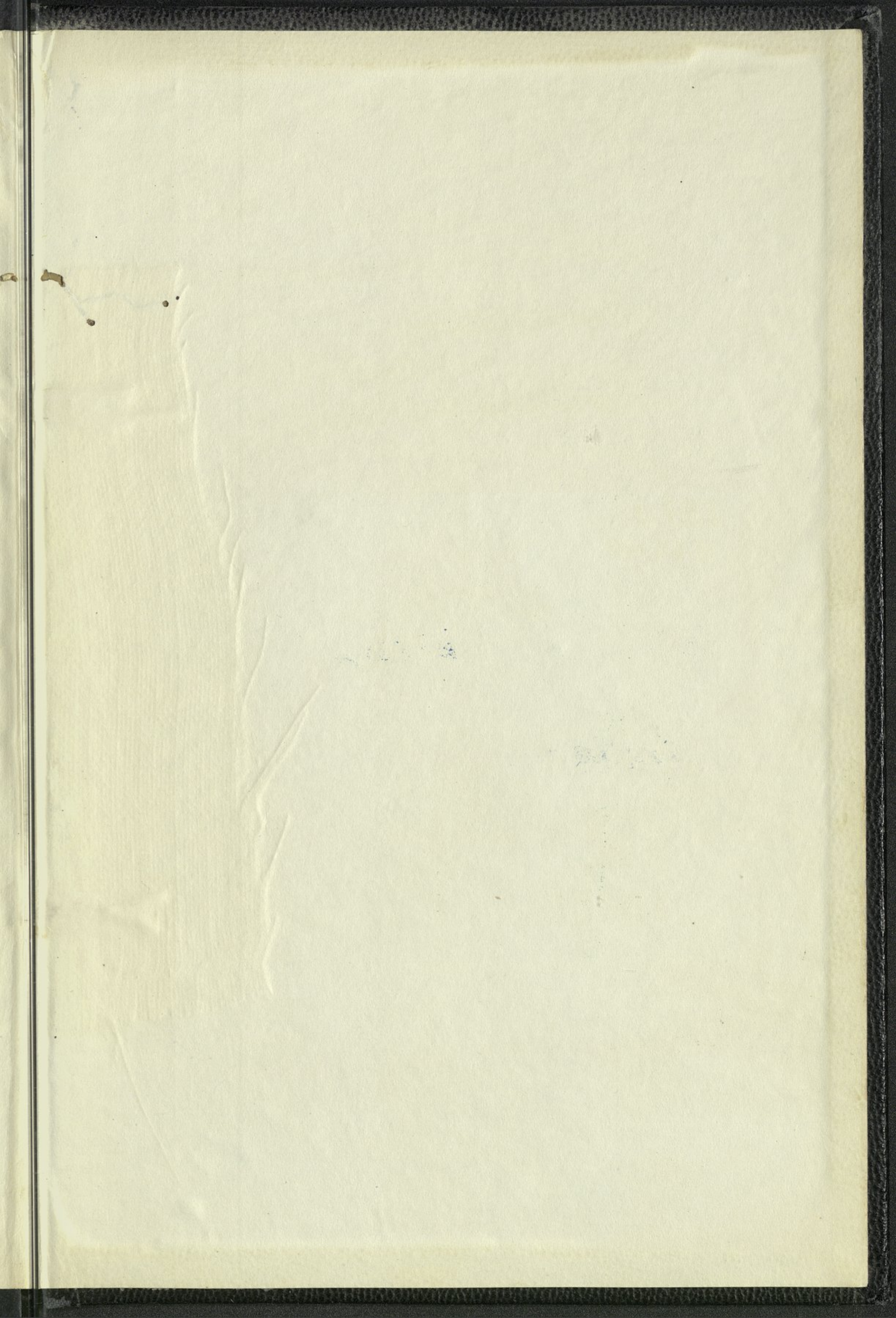
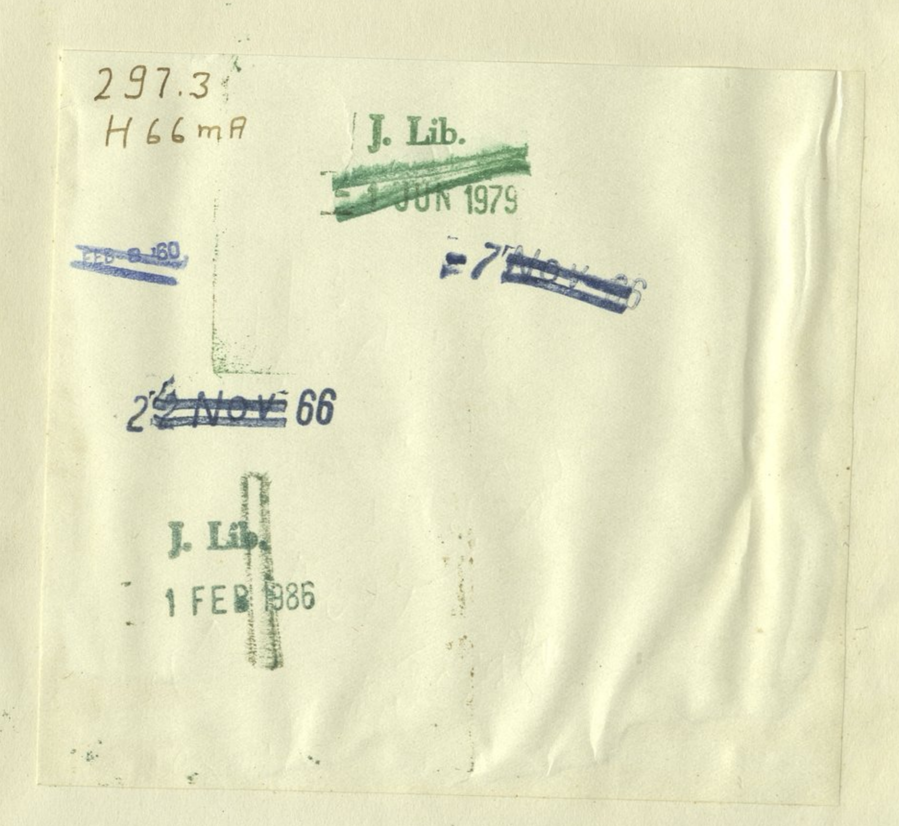
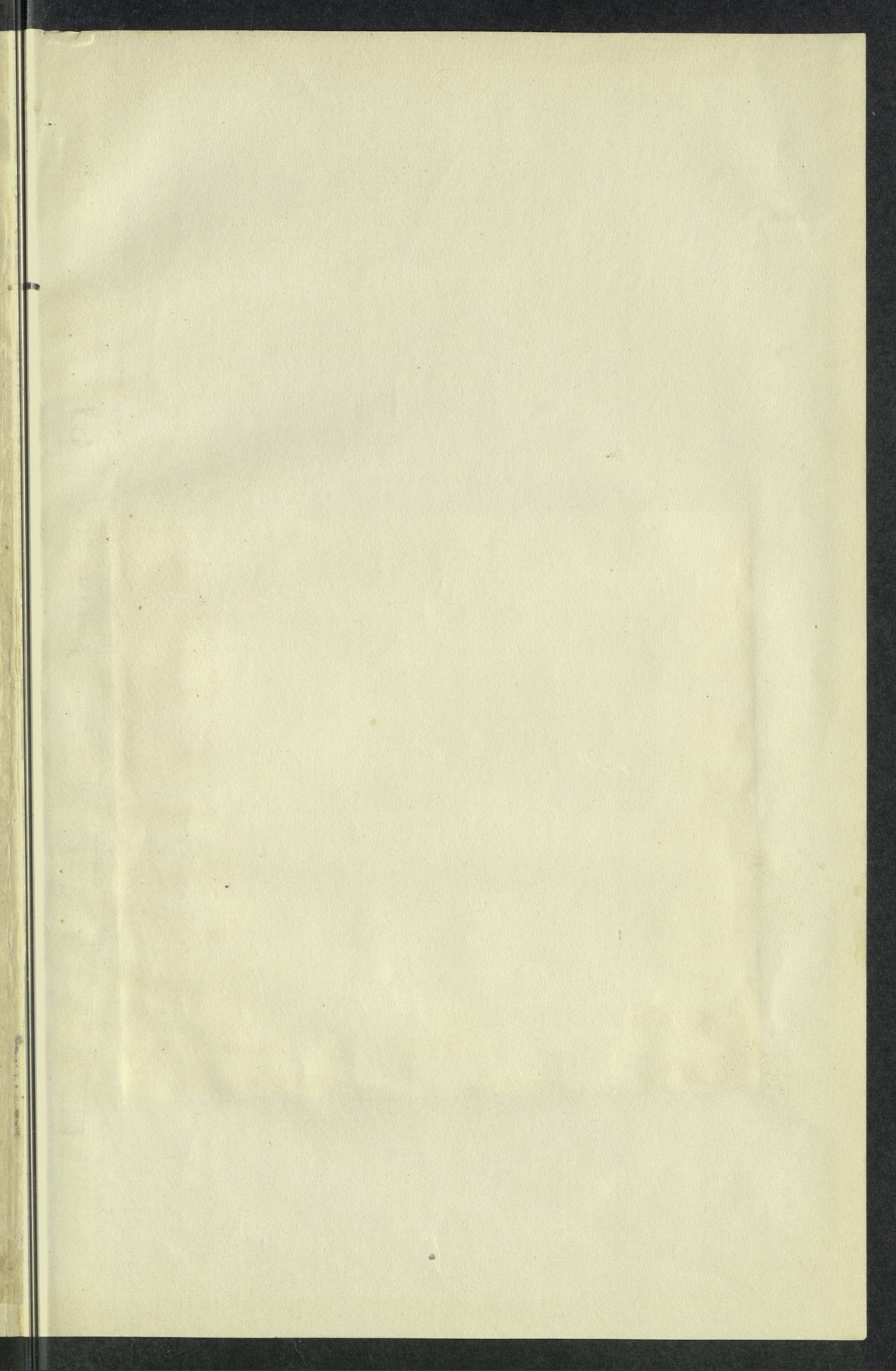
البهراوي

المستشرقون والاسلام







المستشرقون والاسلام

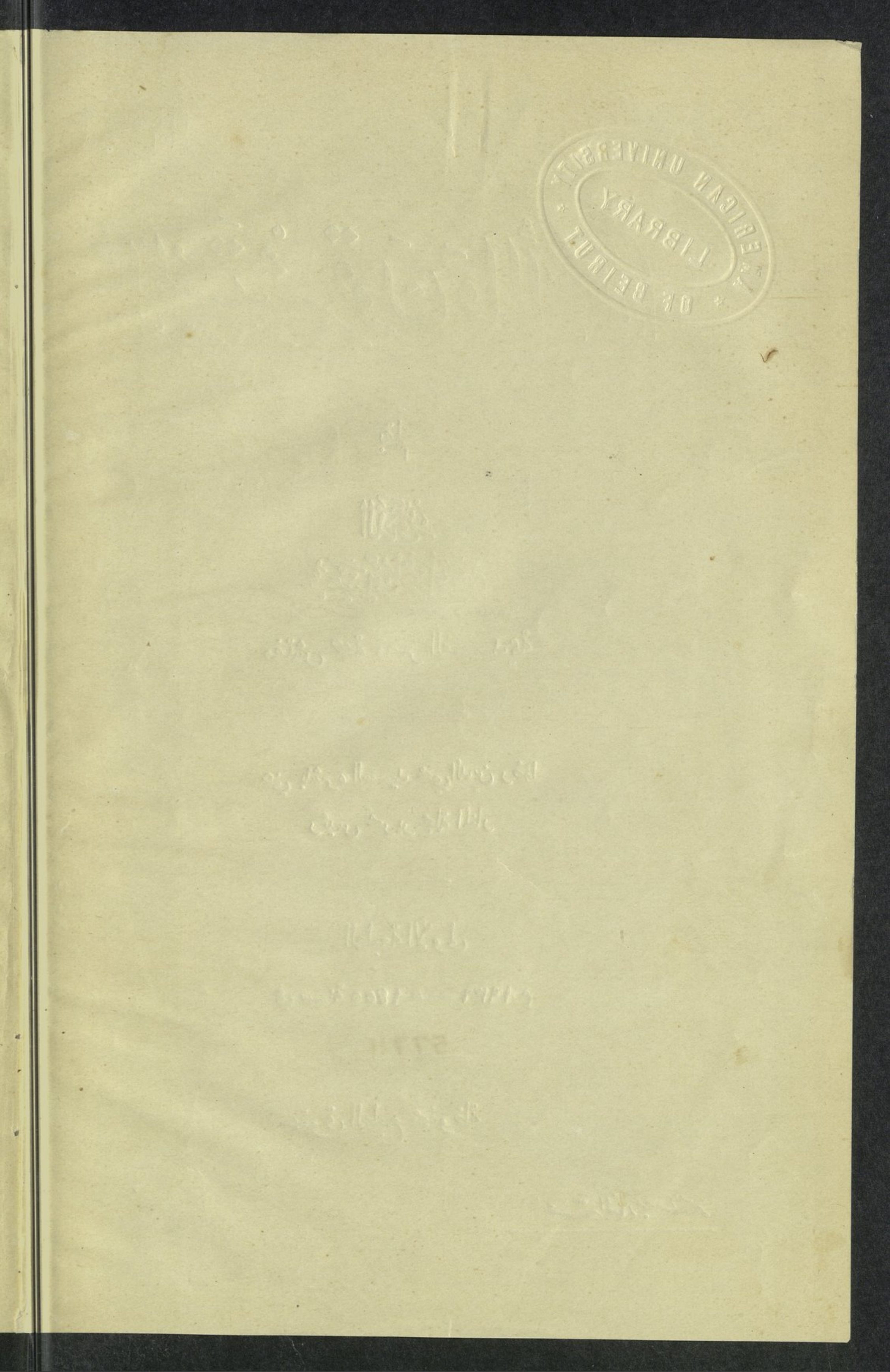
بقلم

الدكتور
حسين الهراوى
مفتش صحة مصر القديمة

عني بنشره السيد محي الدين رضا
رئيس تحرير مجلة المنار

الطبعة الأولى
في سنة ١٤٥٥ هـ — ١٩٣٦ م

مطبعة المنار بمصر



فهرس الكتاب

(تم الفهرس)

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم

من احمد نسيم الشاعر

الى الدكتور حسين الهراوى

قف وقفة بين اجلال واكبار — واحمد دفاع طبيب الحي والدار

جلى «حسين» بشوط راح ينهبه — شأن الجواد إذا جلى بمضمار

ما أنفك يهدي إلى الاسلام منكره — والحق أبلج لا يخفى بانكار

يقظان ما هدأت يوما شقاشقه — كالفحل يتبع تهداراً بتهدار

في كفه قلم لو شاء أترعه — سم الأساود أو شهداً لمشتار

مرقق الحد مبري له جدل — يرضى النبي ويرضي الخالق الباري

يراعه كقناة الخط يرهبها — سنان كل أصم الكعب خطار

تجري على الطرس آيا حين تقرأها — يجري دم الرشد بالبادي وبالقاري

قوبه في ارتياد الحق أشرعها — للأخذ بالحق لا للأخذ بالثار

تدفع الصدق من حيزومها صبباً — دفع الخضارم تياراً بتيار

من عترة برسول الله مشرقة — ملء النواظر من زهر وأقمار

الله أنزل في الأحزاب أنهمُ — من أهل بيت كرام الخيم أطهار

فما أرتضوا نزعات الأمر مأثمة — ولا أرتدوا برد آثام وأوزار

ولا تقطع أمر الله بينهم — ولا أصيب بنقص بعد امرار

أعظم بهم في مجال الدين من نفر — مهاجرين ذوي عزم وأنصار

قم يا حسين فاطفيء كل مشعلة — من الضلال تلظى زندها الواري

عجل لهم قطهم خزيا إذا حسروا — عن أوجه سفرت سوداء كالقار

مدوا بأيد تخط البطل فاندحروا — قهراً أمام متين الايد قهار

لولاك لانغمست في الكفر ناشئة — كادت تضل بجحاد وكفار

سر في طريقك وادمغهم بمحرقة ... تبقي ندوبا ذات آثار

مستضعفون إذا ذلوا فان قدروا ... جاءوا بمكر خفي الكيد كبار

شريعة الله والمختار هازئة ... بمفترين على الاسلام أغرار

مستشرقين أثاروا نقع حملتهم ... حتى كأنهم طلاب أوتار

يخفون تحت ستار البحث كيدهم ... وهم على دين قسيسين أحبار

قوم أحق بلبيس النعل مشركة ... ولبس منطقة شدت بزنار

تعصب وأكاذيب ملفقة ... من مقذعين وقاح النقد أشرار

ما بالهم نقدوا القرآن وانصرفوا ... في نقدهم عن أصاحيح واسفار

واجهل الناس من يبني عقيدته ... على شفا جرف من زيغه هار

وكيف تطلب منهم رشدة وهم ... في الدين عمي قلوب عمي أبصار

ان أبصروا الخير أخفوه وان ظفروا ... بالشر أبدوه في جهر وإسرار

وللذين استباحوا البغي ساهرة ... مشبوبة الوقد من ناس وأحجار

في كل يوم ترى منهم أخا خطل ... يقول أذعن غير مختار

ضلت يراعته في نفس باطله ... كما يضل السرى في ظلمة الساري

يشراه بالخزي في دنياه ممتطياً ... متن الضلال وفي أخراه بالنار

لا نضر الله داراً بات ساكنها ... ولا سقاها حيا وطفاء مدرار

إن كان للعلم تضليل وشعوذة ... فالعلم أقبح مدعاة إلى العار

« * »

حسين هل لك في حمد يردده ... فم الزمان اذا أدلى بأخبار

كأنه باقة في روضة أنف ... شتى الازاهير من ورد ونوار

جادت عليها العزالى فهي زاهرة ... وكل ناضرة الاكمام معطار

قصيدة تضرب الدنيا بسنبكها ... فتنبه الذكر في بيد وأمصار

انى تسر تترك الآفاق مشرقة كوكب مستفيض الضوء سيار

ضمها بعروتك الوثقى معطرة كأنها وردة من ورد آذار

حسبي بمدحك أعلاه وتزكية فبالشريف تعالى شعر مهيار

جزاك ربك في آلائه نعما موصولة بعشي بعد ابكار

أعداك الدين للجلي إذا اشتجرت اعداد ليث قوي الزند زأر

دين من الله جلى كل واجبه يوم استهل بأضواء وأنوار

كالشمس ما أشرقت بيضاء مسفرة تختال ما بين أشراق وأسفار

وبعد فانظر الى نفسى وما احتملت من حاسدين لاهل الفضل أغمار

عمرت فيهم فضاعت مدة سلفت عددتها بينهم من شر اعماري

سدوا عن الشدو آذاناً مصلمة ليست تصيخ لورق فوق أشجار

ان أنكروك فلا تحزن فقد نكروا من قبل فضلك آياتي واشعاري

احمد نسيم

الفصل الاول

اسباب ونتائج :

يحدثنا التاريخ أن جزيرة العرب عامة ومكة خاصة ، لم تكن قبل الاسلام مستعمرة لأحد ، ولم يفتحها فاتح قط[١] وكان العرب مدى تاريخهم أحرارا

وكذلك يحدثنا التاريخ أن العرب قبل الاسلام لم تكن لهم ثقافة ، أو دور تعليم ، ولم تكن لهم مدنية ولا تاريخ مكتوب غير ما كانت تتناقله الألسن راوية عن راوية ، وتلك هي ثقافة الفطرة

ولم يكن للعرب هيئة اجتماعية ، أو نظام حكومي بالمعنى الذي نفهمه الآن . وجل تفاخرهم كان بانتصار قبيلة على أخرى ، أو بتحديها ، فكانوا أشتاتا من القبائل لا تجمعهم إلا ميادين الحروب أو أسواق التجارة او مواسم الحج

ومن البين أنه لم تكن هناك أية فكرة أو ظن بينهم لجمع شتاتهم وتوحيد مجتمعهم قبل الاسلام

ومن وسط هذه القبائل المفككة أو من أسحق الامكنة فيها سطعت أشعة الاسلام، وفي مدى عشرين عامامن حياةالنبي العربي الكريم ﷺ ، تكونت أمة تشعر بوجودها الادبي وتقوم برسالتها في الأمم المجاورة ، فتكتسح المعتقدات البالية ، وتقضي على ملك الفرس والرومان وترثه

---

(١) مواقف حاسمة الفصل الاول لعنان

وليس لهذه النهضة الكبرى ، والثورة الفكرية العظمى سوى مصدر واحد هو القرآن ، وأداة واحدة في تأدية الرسالة هي شخصية سيدنا محمد ﷺ ، ومهما يكن من الظروف التي ظهر فيها الاسلام ، وأحوال العالم في ذلك الوقت ، فان ظهور الاسلام من أجدب وسط في العالم ، ومن أوحش صحراء ، ومن أبعد الامكنة التي يظن أن العالم ينقذ على يدها ـ هذا كله ـ يعد معجزة لا شك فيها

وإذا كانت النهضة العربية ومصدرها الاسلام وحده تعد آية فان اكتساحها للعالم والمعتقدات وتكوين دولة ترث الرومان والفرس في مدى ثمانين عاما بعد شرا ليس من السهل أن يعود ، ومن المستحيل أن تجد له مثلا في التاريخ(١) خصوصاً إذا لاحظت أن هذه الثقافة الجديدة قد هضمت الدول كلها وطبعتها بطابع خاص هو الطابع الاسلامي

بل المثير للدهشة والعجب أن تظل هذه الثقافة الى الآن راسخة ثابتة رغم العواصف التي واجهتها ، والحروب التي عملت على فنائها

*
* *

والتاريخ يحدثنا عن تنازع البقاء الدولي بين الشرق والغرب ، ويصف لنا من الحوادث مدها وجزرها ، وكيف بسط الشرق سلطانه وساد ، ثم كيف قاومه الغرب ورده واكتسحه أو كاد

وعلى الرغم من كل هذه التقلبات ، فالاسلام دينا وقانونا وثقافة اجتماعية وأخلاقية ، ثبت لكل هذه الموجات والعواصف والتقلبات ثبات الصخر على الشاطىء ، فذهبت كلها بذهاب الزبد على سطح الماء

والواقع أن أعداء الاسلام لم تهدأ ثائرتهم ، ولم يفت في عضدهم بقاء الاسلام

(١) فتوحات الاسكندر ونابليون استغرقت زمنا يسيرا ولكنها ماتت بموت أبطالها

قويا مكينا على الرغم من الحروب والدسائس في البلاد الاسلامية التي أثاروها ، بل كان ذلك مما زاد المسلمين يقيناً وثباتاً واستمسا كا بدينهم ومحافظة على يقينهم، لأن الاسلام يحفظ القومية ، ويشعر الناس بواجبهم نحو أنفسهم ، ويجمعهم في دائرة واحدة من العاطفة ، ويوجههم كلهم إلى قبلة واحدة ، هذه القبلة التي تفنى ازاءها القوميات والشعبيات ويتساوى فيها الناس أجمعون من جميع الاجناس والأوساط.

أضف إلى ذلك أن الاسلام هو أول مطلع للتفكير الحر ، والتحلل من قيود التقاليد ، وهو الذي يحث على الاسفار وجوب القفار والمشي في منا كب الارض ابتغاء الرزق . وهو في تعاليمه ينافي الاستعمار ، وينافي الخضوع لكائن من كان إلا للواحد الديان.

وفضلا عن ذلك فان الاسلام عطف على الاديان الاخرى ، وطبع الشعوب التي انتشر فيها بطابع آخر هو الطابع العربي . فترى معتنق الاديان السابقة له والذين يعيشون في البلاد الاسلامية تجمعهم بالمسلمين رابطة الطابع واللغة ، ويعطفون على الاسلام بداعي العروبة ، والعروبة هي الطابع الثاني للاسلام لغير أهله . بما سنه من المعاملة الحسنة ومصاهرة أهل الاديان الاخرى وتقوية روابط الاسر ، ونشر روح الوئام بين الجماعات ولذلك اختلطت الانساب وتنوسيت ، ولكن الشائع في البلاد الاسلامية هو الاصل العربي سواء كان الشخص مسلما أو غير مسلم . فأصبح المؤرخون في حيرة من تسمية هذا الامتزاج وتلك الثقافة ، فطوراً يسمونها الاسلامية وطوراً يسمونها العربية

تلك حقيقة ، وذلك واقع ، ولم يخف عن الغرب ، وليس في حاجة إلى دليل وليس من المستطاع انتزاع تلك العواطف من أفئدة الناس ، وليس من الممكن استئصالها بحملة عسكرية ، أو انشاء محكمة تفتيش أندلسية جديدة لمحاربة آراء الناس ولغاتهم وضمائرهم وعلاقاتهم

فالمسألة كلها فكرية وعلمية ، ومحاربتها يجب أن تكون على أسلوب نشأتها: ثقافة وغزوة فكر

من أجل هذا نشأ الاستشراق في بلاد الغرب ، وأخذ جماعة من الغربيين يعكفون على لغات الشرق وتاريخه ودينه دراسة واستذكاراً وحفظا وتحقيقا وتغلغلا في البحث

هذا هو منبع المستشرقين ، وهذا هو مصدرهم ، وتلك هي الغاية التي يعملون لها .

والباحث في هذه الموضوعات لا يعدم موضوعا جديداً علمياً ، ولا يعدم كتابا قيما مدونا ، يعيد نشره ، ويحيي ذكره ، ليصبغ نفسه بصبغة العالم البحري ومنها اصطبغ اسم المستشرقين بصبغة علمية

غير أن النواحي الاخرى التي عكفوا عليها وهي غزوة الفكر الشرقي في قوميته ولغته ودينه كانت واضحة جلية في أعمالهم لانها الهدف الاول والغاية القصوى

والمستشرقون هم من أساتذة اللغات الشرقية في الجامعات وطلبتهم من أبناء وطنهم ، وهؤلاء الطلبة يعدون أنفسهم للعمل في المستعمرات في الشرق ، وكان لابد من المحافظة على قومية هؤلاء الطلبة . ولابد للعناية بتربيتهم أن لا يكونوا أداة عطف على الشرق أو مصدراً لاذاعة محاسن الاسلام ، ولادراك ذلك لابد من تصوير الشرق بصورة بشعة قبيحة في أخلاقه وعاداته وآرائه ، ولابد من تصوير الاسلام في صورة منفرة ، وأن يكون هؤلاء الطلبة حربا على الشرق والاسلام .

كما لابد من أن يقوم هؤلاء المستشرقون بدورهم في تغذية جمهور أممهم بمثل تلك التعاليم بنشر مؤلفات يصفون الشرق فيها بصورة مشوهة . ويصمون الاسلام بكل المخازي التي هو منها براء

ولذلك أصبحت الهوة بعيدة بين عواطف الغربيين والشرقيين ، وأصبح التفاهم أبعد منالا مما يجب

وقد تأثر الشرق نفسه بتلك الدعاية ، وكأنه من هذا التجريح والتشنيع شعر بضعفه أمام الغرب وألقى فريق من ضعفاء النفوس سلاحهم ، فاعتقد الشرقيون أنفسهم أن عاداتهم وأخلاقهم وقوميتهم وشعوبهم في مستوى أدبي وعقلي أقل من المستوى الاوربي ، وأصبح الشرقيون لا يثقون بأنفسهم في التفكير ولا في العمل الحر ولا في إدارة الاعمال ، وأصبحت تراهم إذا قرأوا في الجرائد أي جريمة عادية أو خبراً صغيراً ثاروا وقالوا إن ذلك مستحيل حدوثه في الغرب ، ولذلك أخذوا يقلدون الغربيين في كل شيء ، في المعنويات وفي الماديات

أما في المعنويات فقد شاهدنا اختلاط الالسن في الاسر والبيوت ، ونبذ اللغة القومية في الطبقات المتفرنجة ، وكذلك في الزي النسائي ، واستحالت الاخلاق ، وضاعت تلك المودة القويمة وصلة القربى ، وأصبح الشخص ينظر إلى أسرته المصرية الصميمة من أعلى إلى أسفل ، يحاول خدع نفسه بأنه غربي ، وأنهم شرقيون ، ورأينا تياراً جارفا من الادب الغربي يكتسح التفكير الشرقي والقومية الشرقية ، وانتشرت القصة المعربة ، وهي قصص لا تخرج عن معاني الحب الساقط ، وألفاظ الخنا ، وخيانة الزوجة ، وتهوس الشباب ، وسقوط المرأة التي يقابل الزوج زلتها بالعفو والصفح والغفران

كان هذا من أثر الدعاية أن العربية ينقصها أدب القصة ، فملأ المعربون هذا الفراغ بقصص لا تلتئم والشرف الشرقي ، ولا الغيرة الاسلامية ، ولا الآداب القومية . ثم هجم جماعة المبشرين على معاقل الاسلام ، مزودين بالمال والعلم والرجال ، فأصبحنا نرى المخازي والاغراء والقبائح ترتكب باسم الاديان ،

وأصبحت الاسرة الاسلامية يقتنص بعض أفرادها بالمال أو بالاغراء أو الاستهواء أو التنويم المغناطيسي باسم الدين . وترى ذلك متجلياً في دور التعليم الاجنبية ، وفي المستشفيات الاجنبية التي تحمل على بابها بالخط العريض انها بيئة ووكر للمبشرين في ثوب علمي شفاف . طرق لا يقرها عقل أو ذمة أو ضمير أو وجدان

أضف إلى ذلك أن كل بلد شرقي استعمر كان لا بد له من طلائع تجوس الديار ، وتستكشف الآثار ، وتكتب التقارير

وكان لابد لهذا الجاسوس أن يلبس ثوب العالم بلغة البلاد ، وأن يصطنع بحث العلمي

وفي حالة دخول الجيش الفاتح لابد لقيام صلة بين الاهالي والجيش المهاجم والتاريخ يحدثنا أن هؤلاء كلهم من المستشرقين

أما في حالة السلم فلابد من وضع سياسة لمعالجة هدم الاسلام وتفريق كلمة أهله ، وإعداد النفوس لقبول التغييرات التي تدخلهم تحت النير

هذه مسائل علمية محضة ، ويقوم بها المستشرقون

فلتغيير الدين يجب أن يقال إن الاسلام دين مخترع ملفق ، ولهذا الرأي شيعة من المستشرقين ، وللسخرية من الاسلام يجب مهاجمة شخصية النبي الكريم ولهذا أيضا شيعة من المستشرقين

ولتفكيك روابط العرب يجب أن يفهم الناس أن العربية الفصحى لا تصلح لشيء ، وأنها لغة قديمة وأن اللغات الدارجة أنفع منها

ولتفكيك روابط القومية والهيئة الاجتماعية الشرقية يجب أن يعزى كل شعب إلى أصله ، لان العرب لم يكن لهم فضل في ثقافة أو تاريخ

ولاضعاف الروح القومية وقتل الاعتماد على النفس يجب أن يفهم الشرقي أنه غير مؤتمن الجانب ، وأن الاختلاس غريزة فيه ، وأن الشرف بعيد عنه ،

وأن بلاده وتربيته لا تصلح إلا للزراعة ، وأن عقله غير مكون تكوينا تجاريا ، وهذا كله ليحتكروا التجارة والصناعة ويتركوا للبلاد المستعمرة العمل الزراعي الشاق الذي لا يدر إلا الخير القليل

***

كل موضوع من الموضوعات التي ذكرناها تخصص لها فريق من المستشرقين وقد أصبحنا نعرف وجهة تخصص كل واحد منهم ، ويمكننا أن نعد أسماء المخصصين لكل موضوع من هذه الموضوعات كما سيمر بك في هذا الكتاب ، وكل هذه الموضوعات ذات مرمى سيء ، وليست من الحقائق العلمية في شيء ولذلك فإن هؤلاء الناس قد ألبسوا موضوعاتهم الثياب العلمية ، غير أنه لم يتعرض لهم أحد بنقدها وإظهار مافيها من غش وخداع وتلبيس ، حتى إن كثيراً من القراء قد خدعوا بها ودخلت الحيلة عليهم

ولذلك يجب تحرير الفكر الشرقي من تلك الغزوة التي طال أمدها وسئمنا تكرارها ، ويجب أن نبرهن لهؤلاء الناس أنهم خادعون ، وأن الاخلاق الغربية لم تبلغ إلى الآن المستوى الشرقي ، وأن الزخرف البراق من المعاملة والطلاء الخارجي للمعاملات العادية لا يغير الواقع فالبلاد الغربية كالبلاد الشرقية فيها أحط الاخلاق وأشنع الجرائم من كل نوع

وليس الفكر الشرقي بأقل في مستواه من الغربي ، وإنما في استغلال المواهب نتيجة التربية الاستقلالية التى امتاز بها الغرب ونتيجة لازمة للحرية الشخصية والمساعدة الحكومية التى حرمتها الشعوب الشرقية ، إلا أن أول دعامة في تحرير الفكر الشرقي أن يعرف أسرار استعباده فيقف دونها حائلا، ويطلع على الصواب فيستزيد من مناهله ، ولا يقبل التغرير ، وأن يواجه هؤلاء المستشرقين بحقيقتهم ويعلم أن بضاعتهم مغشوشة ولأغراض غير بريئة ، وهي بضاعة زائفة صنعت في

معامل التغرير ، ولذلك عمدنا إلى الرد على بعض المستشرقين في هذا الكتاب وجعلنا الرد في أسلوب علمي ليعرف القارىء الحقيقة

والذي دعانا إلى وضع هذا الكتاب هو تلك الحادثة المشهورة التي اضطرب لها عقلاء المصريين ، فانه لما صدر المرسوم الملكي بتأليف المجمع اللغوي الملكي بالقاهرة ، ووجدنا اسم فنسنك من ضمن أعضائه نشرنا شيئا من مباحثه ، ورددنا عليه ، وانبنى على ذلك خروجه أو إخراجه من المجمع اللغوي وحلول غيره مكانه ، وبذلك انفضح جانب عظيم من أعمال المستشرقين وحقيقتهم مما سيتجلى عند قراءة هذا الموضوع في الصفحات المقبلة

أضف إلى ذلك أن هذا المبحث الذي خرج من أجله فنسنك كان بعض الناس سرقه ونسبه لنفسه في كتاب ادعى أنه بحث في الشعر الجاهلي ، وبذلك اتضحت آفة أخرى من آفات المستشرقين هي أن بعض الناس من المسلمين يجارونهم في تفكيرهم ويقتبسون آراءهم بغير نسبتها إليهم ليقال إنهم من العباقرة

وفوق ذلك فقد عثرنا على بعض سفسطة المستشرقين من أن محمداً كان على علم بالاديان السابقة وأنه اتصل في سياحته للشام بأهل العلم مما دعاه إلى وضع قرآنه وتلك الفرية قد اتخذت سبيلها في التفكير الشرقي ورددنا على ذلك في حينه كما سنزيده شرحا في الفصول القادمة

والخلاصة أننا نريد تنبيه الناس إلى طلائع الاستعمار . ومصدر تغذية المبشرين وأدوات أذلال الشعوب الشرقية وتفريقها . وتشتيتها . ونثبت أن هذا كله من المستشرقين .

ولا ندعى أننا ندافع عن الاسلام بهذا الكتيب . فنحن أهون أن تكون لنا هذه المنزلة الرفيعة . ولكننا نريد أن نهتك سترهم ونظهر حقيقتهم دفاعا عن قوميتنا . وعقولنا . وقديماً قال عبد المطلب أما الجمال فسأدافع عنها ، وأما البيت فله رب يحميه

الفصل الثاني

محمد قبـــــــــل البعث

من البين أن مجيء القرآن ، وأثره في النهضة الفكرية العالمية كما رأيت - مسألة مدهشة حقاً .

وقيام شخص واحد هو سيدنا محمد ﷺ بهذه الدعوة الناجحة التي اكتسحت العالم مسألة موجبة للحيرة ومعجزة بلا مراء

والمستشرقون يقفون أمام هذه الحقائق ذاهلين ، ويحاولون الدخول إلى هذا الصرح العالي من باب التشكيك والتضليل . أو باب الاستنباط والقياس .

والتاريخ يعلمنا ويعلمهم أن حياة العظماء لها طريقة في البحث والدرس ولها طريق مألوف وهو الابتداء بدراسة الوسط الذي نبغ فيه الرجل العظيم والظروف المحيطة به . ثم دراسة طريقة انتزاعه للسلطة أو قيامه على قيادة الأمة .

ثم يأتي بعد ذلك دور تكوين الشخصية وأثر الثقافة المحلية والعالمية في نفسه وأثر هذه الثقافة في أعماله .

وقد أرادوا أن يطبقوا كل هذه النظريات والمباحث على حياة النبي الكريم ﷺ كما يدرسون مثلا حياة نابليون والاسكندر وغيرهما .

وأول ما صادفهم من الخيبة والفشل أن الوسط الذى عاش فيه سيدنا محمد ﷺ كان وسطاً فطريا ساذجاً . ولكن هناك فى محيط ذلك الوسط وجد بعض النصارى واليهود .

ووجدت ظروف بسيطة في حياته ﷺ من سفره مرتين إلى الشام يمكن أن يبنوا عليهما القصور العالية من الأوهام

ولا بأس من أن يجعلوا من هاتين المسألتين ـ وجود نصارى ويهود في الحجاز وسفره إلى الشام مرتين ثانياً ـ موضوعا للتشكيك والتضليل

ولذلك نقتبس لك أسهل طريقة وأبسط تضليل من كتاب درمنجهام الذي نشر في السياسة الاسبوعية ورددنا عليه لانه كان أول مثار للبحث (١)

(والواقع أن محمداً منذ الساعة الاولى بل قبل أن ينزل عليه جبريل بالوحي كان أشد ما يكون نفوراً من الوثنية التي نشأ ونشأ أهله من قريش فيها وأشد ميلا لهذه المعاني الروحية التي يتحدث عنها النصارى واليهود من أهل الكتاب في أنحاء شبه جزيرة العرب ممن كان يتصل بهم في أثناء ذهابه إلى الشام وإلى اليمن في القوافل قبل أن يقوم بتجارة خديجة وبعد أن قام بها

وهذه المعاني الروحية في اتصالها بنفس محمد ﷺ المتوثبة منذ صباها للكمال هي التى دفعته إلى تحنثه بغار حراء شهراً أو أكثر من شهر

ان الله تعالى رضي للناس الاسلام ديناً مع بقاء الاديان السابقة . للقرآن وحده مندمجة في هذا الكمال الروحي ـ أي الاسلام ـ اندماجا أشار اليه القرآن في قصص أصحاب هذه الاديان وما جاءوا به من الحق من عند ربهم وأشار اليه حين أراد أن يثبت محمداً ﷺ في أمر ماجاءه كما جاء في سورة يونس (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين)

وفي هاتين الفقرتين ملخص لآراء المستشرقين الذين يظنون أنفسهم أهلا للبحث والاستنتاج دون أن نرميهم بشيء من سوء النية . ولعل ذلك أهدأ أنواع ضلال المستشرقين

ولما تسربت هاتان الفقرتان في الصحافة المصرية وعلى أيدي باحثين مسلمين

---

(١) طبع باسم حياة محمد للدكتور هيكل

رأينا توضيح هذه الطريقة واظهار ما فيها من خطأ في تطبيق ما يقال عن عظماء الغرب على حياة نبي عربي عاش في بيئة خاصة وفي محيط لا زال يتمسك بعاداته وأخلاقه إلى اليوم.

ولسنا نتهم هذا الرأي بأقل من أنه استنباط غير موفق ورأى خاطىء نتيجة الجهل والخطأ في الحكم

فأنت ترى من هاتين الفقرتين أن سيدنا محمداً تعمق في درس الأديان وتلقي مبادئها على الرهبان في سياحاته وأن ذلك العلم هو الذي دفعه إلى التحنث

أما أنه خالط الرهبان وتشبع بمبادىء الاديان السابقة فذلك ظن ليس له من مؤيد ولو أنه كان كذلك لكان في كل عمل من أعماله دليل على ذلك وقد أحصى القرآن الكريم كل ماوجهه أعداء الاسلام، أعداء محمد ﷺ له من التهم ومنها الكذب والسحر والشعر. وكل ماشئت من صنوف السب والشتم والتهكم والضرب بالحجارة والتحدي للقتال كل هذا قيل ولكن واحداً منهم لم يجرؤ أن يقول له إنك تعلمت هذا العلم على فلان. ولو كانت هذه الجملة قيلت لكنا على الاقل وجدنا عليها رداً في القرآن

ولو أن نفس محمد عليه السلام إعتنقت دينا أو مالت لأي دين قبل الاسلام لوجدنا لذلك أثراً واضحا في الحديث وقد سأله الناس كل أنواع الاسئلة بلا خجل وكان يرد عليهم بالصدق والأمانة التي اشتهر بها. ولم يرد مايؤيد هذا الزعم ولذلك استنبطنا وكنا محقين في هذا الاستنباط أنه عليه السلام كان خالي الذهن من جميع الاديان وأنه اشتق طريقا في العبادة لنفسه كما سنبين ذلك في التحليل النفسي لحياته

أما الرحل والاسفار في التجارة أو مع عمه فقد كانت رحلته(١) الاولى مع عمه إلى الشام وهو ابن تسع سنين ولم يكن هناك مجال ما لتلقى هذه العلوم فليس ثمة جامعات وليس للرهبان حلقات درس كما أنه لم يكن يومذاك جماعة من المبشرين الذين نراهم اليوم يغررون بالناس ، وكل ماحصل من الراهب بحيرا أن تنبأ لهذا الغلام بمستقبل ديني وتوسم فيه استعداداً خالصا لهذه الرسالة الكبرى

والرحلة الثانية كانت وهو ابن خمس وعشرين من مكة إلى بصرى ومدة هذه الرحلة كانت ثلاثة أشهر

إذن فلنمش في هذا الطريق نفسه ، وانر والمستنبط مايمكن استنباطه ، ولنتعرف عادات العرب وأخلاقهم

فأول ظاهرة خفيت عن المستشرقين من عادات العرب أن صغارهم لايجالسون كبارهم ، ولا يمكن شاب حديث السن أن يجلس في مجلس الكبار ولا يناقشهم، ولا يباح له أن يتحدث في مجالسهم

ولم يخبرنا التاريخ أن محمداً ﷺ شذ عن هذه القاعدة ، وهذا دليل على أن كبار الرهبان وغيرهم لم يكن لهم من وسيلة لقلب عقيدة هذا الفتى كما يفعل المبشرون من أذناب المستشرقين في هذه الايام

وأما الرحلة نفسها فيجب أن نلم بعمل التاجر الذي تكون مهمته من نوع عمل سيدنا محمد ﷺ ، والعادة الجارية في بلاد العرب إلى يومنا هذا هي أن يقوم التاجر ببضاعته حتى يصل إلى المدينة التي سيبيعها فيها

ثم يذهب إلى منزل وسيط التجارة فيمكث في منزله بضعة أيام حتى يصرفها الوسيط ويعطيه الثمن ثم يعود قافلا

(٢) تحقيق الطريق ومسافته وعادة العرب هذه رجعنا فيها إلى فؤاد باشا الخطيب وزير خارجية الحجاز سابقا ورئيس ديوان شرق الاردن الآن

فعمل التاجر في هذا السبيل ينحصر في المحافظة على التجارة في أثناء الطريق ومساومة الوسيط وحمل الثمن إلى أصحاب البضائع

والمسافة بين مكة وبصرى تقطع على ظهور الابل في نحو أربعين يوما ذهابا ومثلها إيابا ، ومدة إقامة التاجر في بيت الوسيط هي المدة التي تبقى من ثلاثة الاشهر التي قضاها سيدنا محمد (ص) في تلك الرحلة

فالوقت كله يقطع في الطريق وكانت رحلة واحدة ، فأي عقل إنساني أو غير إنساني تمكنه أن يستنبط أن سيدنا محمداً يمكنه أن يتعلم كل ما أتى به أو كل العلوم التي وردت عنه في وقت كهذا ؟

وأي سخف أدعى للسخرية من مثل هذا الاستنباط الملفق القائل أن سيدنا محمداً في أسفاره تعلم من الاحبار

أضف إلى ذلك ما استنبطه فريدرك شولتهس عندما جمع ديوان أمية بن أبي الصلت وطبعه سنة ١٩١١ (١) وأظهر في مقدمة هذا الديوان مقدار ما بذله من الجهد في جمعه من كتب السير ومن شوازد أخبار الكتب ورأى أن أمية هذا كان قد ترهب ولبس المسوح ونظم قصصا مصدرها التوراة والانجيل وكان يطمع في النبوة إذ أشيع وعرف أنه سيبعث نبي في زمنه

وبعد ذلك بعث محمد عليه السلام . وأخفقت آمال أميه فناوأ الاسلام وجاهر بعداوة نبيه .

ليس في الامر غرابه فليس أمية بأول رجل في مكة أو بلاد العرب عرف شيئاً عن التوراة والانجيل وليس هو أول من عادى الاسلام والتوراة والانجيل والقرآن بين أيدينا شاهد بذلك وفي هذه الكتب توافق في بعض النواحي التاريخية واختلاف في نواح أخرى فليس من المستغرب أن يعرف شاعر عربي

(١) أدب اللغة العربية لمحمد هاشم

شيئا عن التوراة والانجيل وينظمه شعراً ولكن المستغرب حقا أن يقول شوانهنس هذا إن محمداً عليه السلام استقى تلك المعلومات من المصدر نفسه الذى استقى منه أمية .

وليس أدل على الجهالة والتضليل في هذا القول وعلى التعصب الاعمى وقلة الخبرة من أن القرآن ليس بقصصه ولكن باحكامه وبقانونه وباعجازه ، وبأثره الاجتماعي والفكري . فهل اجتمع كل هذا في احد ؟ كلا . ولكن مستشرقاً يظن نفسه في منزلة علمية يطلق لنفسه العنان ويصدر الاحكام فيتلقفها طاعن من طاعن ومبشر عن مستشرق للتشكيك في مصادر القرآن

ولو طاوعنا هؤلاء فيما زعموا ، وبحثنا عن كل حكم من احكام القرآن ومصدره ورأينا حكما منها من السند والآخر من الهند والآخر من فارس ومن مصر ومن أثينا وروما الزم لهذا النبي الكريم آلاف الاسفار والاشتغال بالجامعات عدة قرون قبل أن يأتي بكتاب لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

مثل هذا التفكير المزري يقول به المستشرقون وتهضم عقولهم أن محمداً أتى بما أعجز الانس والجن في سفره الى الشام ثلاثة أشهر منها ثمانون يوما ذهابا وإيابا وعشرة اقامة

ولكنها طريقة من طرق التشكيك وضرب من الهوي لا نشك أن القارىء عرف مغزاه

الفصل الثالث

التحليل النفسي لحياة محمد قبل البعث

نحن ننكر إنكاراً تاماً أي أثر للأديان السابقة للاسلام في نفس سيدنا محمد ، وسواء سمع بها ورآها أو خالط أهلها وتعرف بهم ، فان ذلك لم يترك في نفسه الشريفة أي أثر ، ولم يعلق بذهنه من مبادئها وتعاليمها مايجعله يفكر فيها أو يفضل أحدها أو يقلدها

وليس أدل على ذلك من أنه لم يرد في القرآن الكريم الذي أحصى كل التهم التي وجهها أعداء الاسلام لنبيه الكريم مايؤيد هذا الزعم(١)

ومسألة التحنث في الغار والطواف بالكعبة وتوزيع الصدقات هي نوع التعبد الذي كان يتخذه عليه السلام قبل بعثه

فاذا قلنا إن التحنث في الغار له مايشبهه في الأديان الاخرى فالطواف بالكعبة لاعلاقة له بأي الدينين النصراني أو اليهودي الذي يتعمل جماعة المستشرقين الاسباب ويخترعون الوسائل للقول باقتباس الدين منهما

ولقد طبقنا حياته الشريفة على علم النفس الحديث لنتعرف أي سبب دعاه إلى هذا النوع من العبادة إذا صرفنا النظر عن العامل الالهي الاكبر في توجيهه إلى هذه الوجهة

ولكي يمكن فهم هذا الموضوع سنقدم للقارىء مقدمة وجيزة في علم النفس والتحليل النفسي لكي يتفهم معنا تطبيق حياته على علمي النفس والوراثة

---

(١) بل وجد فيه وصفه بالأمي ووصف قومه بالأميين ، ووجد فيه (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون)

لقد قسم فرويد العقل ثلاث مناطق

١ — العقل الظاهر . أو الواعي . أو منطقة الوعي

٢ — الذاكرة

٣ — العقل الباطني . أو غير الواعي . أو منطقة اللاوعي

فالعقل الظاهر أو منطقة الوعي تحتوي الاشياء التي يدركها العقل في وقت معلوم ، وهي التي تهيمن على الانسان في حالة صحوه وعمله

والذاكرة تحوي الذكريات الماضية أو مامر على الانسان أو حفظه

والعقل الباطني يحوي الاشياء الممنوعة من الظهور بوساطة الرقيب العقلي وفيها جميع الغرائز الموروثة ورغبات الانسان التي تدفعه إلى رغباته المتعددة ولكن يمنعها من الظهور قوة حاجزة تسمى بالرقيب ، لان كثيراً من رغبات الانسان لا تتفق والوسط الاجتماعي

والغرائز الموروثة في الانسان تتجلى فيه من السنة الثانية من عمره باظهار رغباته ككل الاطفال ولكنه يجد المقاومة لتلك الرغبات من الوسط المحيط به والذي يختلف باختلاف السن والوسط

فان الوالدين أو المربين والاساتذة هم الذين يتولون ارشاد الطفل في مدى سنيه الاولى وبذلك يبتدىء التصادم بين غريزته الاجتماعية والغرائز الاخرى كالبهيمية والانانية، فبطبيعة الحال يصبح مضطراً (حبا في استمرار الالفة بينه وبين المجتمع) إلى اتباع خطة مواجهة للواقع فيتنازل قهراً عن الاشياء التي يريدها هو ويستهجنها الناس .

ومن العناصر الاساسية لنظرية فرويد أن الرغائب والميول التي تقمع وتبعد الى العقل الباطني أو غير الوعي لا تمحي بل تبقى حية ولها أثرها في حياة الشخص وتؤثر تأثيراً واضحاً من مظاهر الوحي بطريق غير مباشر فاذا كانت هذه الغرائز

المقموعة سيئة أمكن تهذيبها بالقوة الدافعة المرافقة لتلك العناصر الفطرية التي في العقل الباطني وتوجيهها إلى طريق نافع يساعد على تقدم الشخص ويكون تأثيرها في الوعي نافعاً . هذا ما يحصل في الاحوال العادية ولكن لنقص في التربية وخصوصاً المنزلية قد لا يحصل التهذيب في تلك القوة الدافعة وقد تستعمل في الاضرار بالتطور العقلي من الطفولة إلى المراهقة،مثال ذلك إذا تعلق الطفل بوالديه — خصوصا اذا كان وحيداً — فيكبر وليس لديه أي اعتماد على النفس وتكون النتيجة رسوخ هذا الميل عنده فلا يقوي على احتمال صعوبات الحياة وحده فاذا اضطر الى ذلك اضطراراً أصابه الحنين وكانت عملية القمع — أو تخفيف لوعة فراقه - مسألة شاقة ومؤلمة وذلك لأنه بعد أن تعود الاعتماد على والديه يرى نفسه قد كبر وأصبح في سن خاصة لا تتفق ومركزه وكرامته أن يكون عالة ويتسبب عن ذلك ظهور أعراض مرضية في العقل الظاهر كالبكاء والحزن وكذلك قد تصيب الشخص في حياته وهو صغير صدمات مؤلمة يضطر إلى قمعها في العقل الباطني ولكنها تبقى فيه طول الحياة، وقد تظهر أعراضها في ظروف مختلفة إذ لم يستطع الرقيب قمعها تماما فاذا فشل الرقيب في قمع هذه الصدمات تماما ظهرت بشكل أفكار تجول في خاطر الشخص أو اعمال لا فائدة منها

هذه مقدمة سطحيه جداً في علم النفس يمكنك أن تتفهم منها النتيجة الباهرة التى وصل اليها فرويد وهى أهمية الغرائز في احداث ظواهر عقلية خاصة في تصرفات الشخص في الحياة

وبنظرية العقل الباطني وأثره تفسر الاحلام وتحلل نفسية الاشخاص، ومهما يكن من تنافر الآراء بين علماء النفس فان الجميع (فرويد ويونج وادلر) يعترفون بأن العوامل الخلقية والوراثية لها كل الاثر في الأمراض النفسية . وكفايات الشخص

أما قوانين الوراثة فلم يوضع لها إلى الآن حدود وقواعد ثابتة يمكن تطبيقها بسهولة . وهي وان كانت تفسر لنا الأحوال النفسية التي بين أيدينا الا أن اختلاف طرق الوارثة في سلالة واحدة لا زال محتاجاً إلى تفسير وشرح كأن يكون الاخوان الشقيقان مختلفين في الأخلاق .

الا أن ذلك لم يمنع المشتغلين بتأصيل الحيوان من تتبع سلالة الهجين وامكانهم أن يستلخصوا منها بالتناسل سلالة نقية . فانه من الممكن ومن الامور العادية جداً أن تحصل على جواد عربى أصيل من أم وأب هجينين بتقوية الدم العربى في كل سلالة وذلك بانتقاء الأقرب إلى الأصل الذي تريده .

هذه مقدمة لبحث التحليل النفسى لحياة سيدنا محمد قبل البعث، وسترى أنه يستنبط منها أنه كان في ذاته وشخصيته وحدة كمال مستقلة ولم يكن في نفسه أي أثر للاديان الأخري وانه كان نسيج وحده .

فقد رأيت مما شرحناه لك أن العوامل النفسية في العقل الباطني هي الغرائز النفسية الكامنة أو التي قمعت وان لها أكبر الأثر في تصرف الشخص .

فلنطبق ذلك على حياته الشريفة .

فسيدنا محمد كان يعيش في وسط عبادة الاوثان . أو ما تقدم الاسلام من الاديان، فكانت هذه هي القاعدة الاساسية في المجتمع الذي كان يعيش فيه ، فاذا كان محمد ﷺ قد ورث في نفسه عوامل نفسية تحرضه على كراهيتها كان له أن ينتقم أو يعبث بها ، ولكن عمليات القمع بوساطة الرقيب العقلي وغريزة الاجتماع وآداب العشرة نهته أن يعادي الناس ، فماذا كان شأنه مع نفسه؟ هذا ما سوف ننتظره من نتيجة التطبيق العلمي على ما أثر من حياته الشريفة في كتب السير المعتمدة .

الحمل والطفولة

إن سلسلة نسبه الشريف تنتهي الى اسماعيل وابراهيم من جهة الوالدين وهو نسب معرق في النبوة . والعمل على تطهير العقائد . وسئل النبي عن نفسه فقال — أنا دعوة ابي ابراهيم — (ابن هشام ص ١٥٥)

ونسبه صلى الله عليه وسلم بانتهائه الى اسماعيل وابراهيم ونوح المعترف بنبوتهم من الاديان الاخرى يجعلنا نطبق قوانين النفس والوراثة الاخلاقية على شخصه الشريف . ولو كانت قوانين الوراثة واضحة تماما ومحدودة في حدود علمية تامة — لكان في تطبيقها أكبر لذة علمية . ولكن الناس يعرفون منها اليوم قوانين ونتائج لاشك في صحتها فيقولون عن السبع أنه يموت عطشا ولايلغ من ماء ولغ فيه الكلب .

وينقلون عن أبناء الملوك المعرقين قصصا طويلة ونوادر عن الانفة واحترام النفس فلا ننتظر من مثل ذلك النسب الا وراثة غرائز أرقي من مجموع مستوى الناس علي الاقل مما كان يتجلى في آبائه وأجداده . فانهم لم يشتهروا بالثروة والغني . ولقد ولد عليه السلام في إملاق ولكن آباءه اشتهروا بالشرف والنخوة وعرف عن أهله شدة المراس والصلابة فيما يعتقدونه حقا . ولم يرث عليه السلام من آبائه إلا شرف النفس . وهو ما نعبر عنه باللسان العلمي بالغرائز والالهامات الراقية العالية .

يدلنا علي ذلك أخلاقه قبل البعث ! وقار وحشمة . واحترام لنفسه ولم يرتكب زلة أدبية مما كانت تبيحه عادات الجاهلية . فلم يسكر ولم ينهب ولم يقتل الي غير ذلك مما كانوا يعدونه من ضروب الشهامة .

وكانت أخص صفاته احترام النفس والغير . فلم يعتد على أحد ولم يطلب عنده حق لغيره .

كان هذا قبل النبوة . وقبل أن توجد عداوات وحزازات . شهدت بها وفود أعدائه عند ملك الروم .

وهذا أرقى انواع الغرائز والالهامات .

ولنتمش قليلا بعد ميلاده . فنراه ولد يتيم الأب ولم يلتصق بأمه بل بعث به الى الصحراء .

مسألة غريبة في هذه الحياة الحافلة . فقد علمت ان الالتصاق بالوالدين فيه مضيعة للاعتماد على النفس . وفيه معنى من معاني الرخاوة في الطباع وقد يكون في الالتصاق باحدها مفسدة للأخلاق .

ولقد تيتم من أمه طفلا فلم يكن له أمل في الاعتماد على أحد من الناس اعتمادا قد يقتل من عزمه . أو يفسد من طباعه

ولننظر الي اليتم وأثره في النفس .

أنا شخصيا جربت ذلك ،فقد ولدت يتيم الأب وفي كفالة الأم وقد أورثني ذلك عوامل نفسية مؤلمة . ما تحدثت بها الا أمضني الحزن والألم .

ان أول ما يشعر به اليتيم متى شب هو الاقرار بالواقع والاستسلام للقضاء والقدر. والرضا بما قسم له من نصيب محزن. لفقدان عطف الآباء . والمرشد الخبير في أوقات حرجة من ظروف الحياة التي تحتاج الى قرار حاسم من مطلع خبير . ويكون الدافع النفسي موجها الى الخضوع والوحدة . لا الى حب السلطان والمظهر البراق . كما تتعود النفس الخشونة وعدم العطف. فلا يتعود اليتيم التدلل ولا المرح وهما اهم خواص الطفل في سن الصغر ،وذلك كله نتيجة الاخفاق في اشباع رغبات الطفل . والفشل المتوالي في نوال كل شيء يتطلبه أو يتطلع اليه.

أضف الى ذلك نوعا من الشفقة المؤلمة ، ونوعا من العطف أقتل للنفس من العقاب الصارم ، ذلك هو الحنان الذي يستجدى كأنه حسنة أو نافلة ، اذ ترى قوما يظنون انفسهم على شيء من حسن الصفات يعطفون على اليتيم عطفا هو اشبه بالصدقة منه بالعطف ويشفعون عطفهم بالاشارة الى انهم فعلوا ذلك ليتم الشخص .

دعيت مرة الى مهرجان زواج ،وانا غلام صغير فوزعت الحلوى على الرجال

والغلمان وكان كل واله يحضر لنجله نصيبه من الحلوى ، وخرجت من الاحتفال وليس معي غير دمعة تترقرق، فلم أصب من الحلوى قليلا او كثيرا ، ولم يلاحظ اخفاقي انسان ، فآليت على نفسي بعدها ان لا أذهب الى مهرجان (١)

وتوفيت احدى قريباتنا وانا غلام ، وكانت تحبني لقرابتها من المرحوم والدي وكنت في نحو العاشرة من عمري ، فانسللت وحدي من المنزل لامشي في جنازتها اعترافا بهذا الحنان الذي كانت تظهره نحوي ، وبكيت عليها كثيرا لانها ما كانت تراني حتى تذكر والدي وتبكيه ، وكانت هذه السيدة أصيبت بشلل ؛ فكانت تهتز في بكائها الى درجة اني كنت اشعر ان نوبة اغماء تعتريها فاذا افاقت قبلتني فيتبلل وجهي من دمعها

رأيت وفاء لها ان أسير في جنازتها وان اشيعها الى مقرها الاخير بتلك الدموع التي أرهقتها لذكرى أبي

ودفنت ، ووقفت على قبرها أبكي ، وكنت ألاحظ ان الناس ينصرفون في مركبات أعدت لهم ولم يدعني انسان لمركبته ، وبعد قليل ، وكانت الشمس قد قاربت المغيب ، وجدتني وحيدا بين المقابر ، لم يعرني أحد اهتمامه ، ولم يسأل عني سائل

هناك عرفت ان لا نصير لي في الدنيا ، ولا من يسأل عني ، وضربت يدي الى جيبي فوجدتني خالي الوفاض ، فافترشت الارض انتظر ما قدره لي الله لولا ان أسعفت بمكار له حمار أعرج ، يسوقه امامه وسط القبور ، وهو يغني بصوت متهدج فأوصلني الى البيت على أجر انفقنا عليه .

---

(١) ولعل أمثال هذه الحادثة هي التي جعلته عليه السلام يرضى بالواقع . فلم يذهب الى سمر ولم يحضر ناديا

بعد تلك الحادثة لم أكن اذهب الى مكان الا بعد ان أفكر في طريق العودة وحدي

هذه العوامل كلها تورث في الطفل شيئا كثيرا من الحسرة والاعتماد على النفس ، وتعلمه الحياة ومعناها وهو طفل فيعوض بنفسه ما فاته من عون والده ولذلك لم أشك في رواية بحيرا حين قال عن النبي ﷺ (ما ينبغي لهذا الغلام ان يكون أبوه حيا) لان مثله يجب ان يكون أستاذ نفسه ولا فضل لاحد عليه .

على ان هناك عاملا نفسيا قويا يختلج في نفس اليتيم وهو ذلك الشعور الذي يتولاه بانه ضحية القدر وانه بريء مظلوم في العالم : فقد مرح الطفولة وابتسامتها العذبة ، وسرورها المستمد من عطف الوالدين وارشاد الوالد . فينظر الى العالم بالمنظار الاسود ، ويفكر في الانتقام من العالم لو استطاع الى ذلك سبيلا

هذا سر من اسرار بعض النفوس ، فغريزة التخريب والهدم كامنة في النفس ولكن عوامل الضعف قد تكبر هذه الغرائز ولا يجمحها غير التربية والوسط ، ولم يكن محمد ﷺ في وسط يساعده على تكوين نفسه ولكن الظروف هيأت له أن يكون رقيق القلب وكأني بهذه الظروف ليست بنت المصادفة ولكنها إلهام وتوفيق من قدرة أقوى ، فكيف تهذبت نفسه وكيف صار بارا بالعالم والفقراء واليتامى . وكيف استطاع ان يعرف نفسه وكيف تربت نفسه على العظمة ، ولم تفقد كبرياءها مع اليتم والاملاق

ان (نشأته راعي غنم) هي السر في انتصاره على افكار ثورية تمليها الطبيعة البشرية وغرائز الهدم والتخريب وشعوره بظلم الحياة بفقد والديه

فلما كان غلاما تحمل مسئولية رعاية الاغنام التي هي مضرب المثل في الوداعة ، وهي لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا . وهي أحوج ما تكون لرعايته

من الذئب الذي يهاجمها

ولقد توفرت في هذه الصناعة كل العوامل التي يحبها اليتيم كما أسلفنا من العزلة عن النـاس اتقاء ما يصيب اليتيم منهم من اهمال وعـدم عطف والزهد والاعتكاف حتى لا تتأثر النفس بضعفها في الحياة . فهي نوع من التربية النفسية لنمو غريزة المسئولية ورعاية الضعيف والعطف على الوداعة . والشعور بالسلطان. والاعتماد على النفس

وان محمداً ﷺ ليشعر وهو يرعى الاغنام بانه ملك صغير له رعيته وعليه واجبه . وأهم هذا الواجب هو حمايتها ، من الذئب أو من اللص ، وهو في أثناء ذلك يمشي في الارض ويفكر في الطبيعة بين السهل والوادي، والجبل والصحراء، ثيبحث عن رزق أغنامه ورزقه ، أليس ذلك يصرفه عن البطش بهـا ؟ أليس يعرف انه مسئول عن ضـياعها ؟ اليست هـذه مسئولية تربى فى نفس كنفسه الشريفة كل تقدير للواجب وتعده أن يكون راعيا كبيرا ؟ يرعى الناس فيما بعد.

« ٥ »

حياته وهو غلام

في حياته عليه السلام أثر واضح للغرائز النبيلة ، وان عقله الباطني كان أنشط من عقله الواعي ، والهامه الطبيعي أشرف من الهامات الناس كافة

لقد عاش في وسط ليس للتربية القويمة أي أثر فيه . وقد يكون الوسط العربي في بلاد العرب اليوم مشابها له ، أي إن الغلمان لا يجالسون الكبار ، فلم يكن له فرصة التربية العملية تلقينا أو مشاهدة ، ولكنه كانت تربيـه غرائزه الخاصة اذا صرفنا النظر عن القوة الالهية التى نعتقد انهـا كانت مشرفة على اعداده .

يتجلى لك ذلك في حوادث جمة نسوق لك منها حادثتين : الاولى ماذكره

ابن هشام وغيره نقلا عن الحديث الشريف :

لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان وكلنا قد تعرى وأخذ ازاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة فاني لاقبل معهم كذلك وأدبر اذ لكمني لا كم ما أراه لكمة وجيعة(١) ثم قال : شد عليك ازارك، قال فأخذته وشددته علي ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وازاري علي من بين أصحابي

والحادثة الثانية هي الحادثة المشهورة اذ أراد أن يسمر بمكة وتتمتها كما جاء في قوله عليه السلام : فخرجت لادنى دار من دور مكة فسمعت غناء وصوت دفوف ومزامير فقلت : ماهذا ؟ فقالوا : فلان زوج فلانة لرجل من قريش فلهوت بذلك حتى غلبتني فنمت

فما هو التعليل النفسي لهاتين القصتين اذا صرفنا النظر عن العامل الالهي الاكبر - فان هذا الهاتف وهذه اللكمة هما نشاط العقل الباطن نشاطا غير معتاد نتيجة الغرائز الشريفة التي أخفاها الرقيب العقلي على حكم البيئة التي يعيش فيها عليه السلام ، فسمعه صوتا وشعر به لكمة وهذا كثير الحصول في الامراض العصبية اذ يرى الشخص أو يسمع أو يشعر بأشياء لا وجود لها نتيجة العقل الباطني وكذلك تعلل الحادثة الثانية بغلبة دافع السمر بغريزة الاقتصار والرضا بالواقع ، ومواجهته ، فشغل حتى نام

وليس هناك فرق بين العقل والجنون الا قوة الرقيب فاذا ظهرت الغرائز التي لا تلائم المجتمع سمينا ذلك مرضا ، واذا ظهرت الغرائز التي ترقي المجتمع وتسمو بالشخص الى منزلة رفيعة ومثل أعلى سمينا ذلك شخصية فذة وعبقرية، وعزونا ذلك الى الغرائز الشريفة الراقية التي لم يستطع الرقيب التغلب عليها بحكم لوسط ، فالوسط الذي كان فيه عليه السلام يبيح للاطفال تعرية سوءاتهم أما غريزته فكانت أرقى من ذلك ، ولذلك نشط عقله الباطني ونهاه عن العري ويمكنك أن تؤول كل تصرفاته وهو طفل على هذا النحو فلا تجد هناك

(١) يظهر أن الرواية بالمعنى والا ففي استعمال وجيعة نظر

الا تعليلا واحدا وهو أن غرائزه كانت نبيلة غاية النبل مما اشتهر به من الامانة والكياسة إلى غير ذلك من جميل الصفات

محمد تاجر

هذه الصناعة هى ألصق الصناعات باخلاق الناس ودراسة نفوسهم وفضل السياحات عظيم في تربية الشخص الخلقية . وقد ظهرت لك غرائزه في أمانته . ولنذكر الآن العناصر الجوهرية في هذا البحث وهي صلة محمد صلى الله عليه وسلم بالاديان الاخرى وهل هى التي أثرت فيه في التحنث بالغار أم لا ؟ يقول لنا جماعة المستشرقين إن صلة محمد صلى الله عليه وسلم في سياحاته بالاديان الاخرى عرفته الشيء الكثير عن تلك الاديان ودراستها ويخيل إليك انها كانت دراسة عميقة كدراسة الطالب الذي يتخصص في علم الطب والحقوق مثلا. ومثل هذه الدراسة لا بد ان يلزم الطالب فيها باب أستاذه مدة طويلة جدا من الزمن . توازي على الاقل مدة دراسة تلاميذ سقراط . ولكن ظهر لك انه لم يصرف في الرحلة الثانية غير ثلاثة أشهر منها نحو ثمانين يوما في الطريق . ويلوح لنا ان هذه الرحلة لم يكن الغرض منها سوى التربية النفسية . وتحمل مشاق السفر والمحافظة على الامانة التي عهد اليه القيام بها وهي توصيل التجارة والعودة بالثمن . كما بينا ذلك مفصلا في الفصل الثاني الذي مر بك .

ولقد ادعى درمنجهام وغيره انه عليه السلام ذهب إلى اليمن ولم تؤيد كتب السير هذا الزعم . ولكنها أضيفت فقط للتهويل .

دين محمد قبيل الوحى

فلننظر ما ذكره ابن هشام ونستنبط منه دين محمد قبيل الوحي وهل تعبده له صلة بالاديان الاخري أم لا ؟

لم يرو لنا أحد من المسلمين وأعداء الاسلام شيئا عن دين سيدنا محمد قبل الوحي. بل كل ما قالوه هو انه صلى الله عليه وسلم (ابن هشام صفحة ٢٢٤) كان يجاور في حراء في كل سنة شهرا وكان ذلك مما تحنثت به قريش في الجاهليه والتحنث لغة هو التحنف

وقال عبيد — صفحة ٢٢٥ — فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه فاذا قضى ﷺ جواره من شهره ذلك كان اول ما يبتدىء به اذا انصرف من جواره الى الكعبة فيطوف بها قبل ان يدخل بيته

هذا هو كل ما كان يفعله عليه السلام من التعبد قبل بعثه ولنطبق ذلك على علم النفس ايضا .

لقد نشأ محمد عليه السلام في الجاهلية التى كانت تحترم الكعبة وقد اوجدت الظروف التي طرأت على بناء الكعبة فرصة انقسام القبائل على حمل الحجر الاسود فكانت فرصة سانحة له اعطته ميزة الفصل بينهم وان يكون رداؤه محمل الحجر وان يكون له ميزة وضعه بيديه الشريفتين مكانه

فالهامات محمد ﷺ الطبيعية وغرائزه لم تجعله ينفر من الكعبة وهو يجهل ما سيكون لها من الشأن على يديه مستقبلا . وليس في التوراه والانجيل ما يدل على ان هذا هو بيت الله الذي بناه ابراهيم · فهو علي حكم البيئة التي نشأ فيها لم يشذ عن احترام الكعبة . ولكنه نفر مما حوت من أصنام .مما كان المجموع يدين به نقف هنا وقفة قليلة لنتأمل هذا الفرق الهائل بين احترامه للكعبة ونفوره من الاصنام .

فالكعبة كما رأيت لا تمت بصلة لليهودية ولا للنصرانية . ولكن العرب كانوا يحترمونها احتراما متوارثا وكانوا يعرفون أنها بيت ابراهيم

ولقد روى الكلبي في كتابه (الاصنام) أن منشأ هذه الاصنام هو شدة تعلق ابناء اسماعيل بالكعبة فكانوا كلما كثروا ورحلوا إلى جهة أخذوا حجرا من الكعبة ووضعوه في مكانهم الجديد وطافوا به تبركا

ثم دار الزمن بهم فعبدوا ما أستحبوا ونسوا ما كانوا عليه

فانت تري من هذا ان احترام الكعبة موروث في ابناء اسماعيل ومنهم محمد ﷺ ولكنه نفر من الاصنام .

وهذا فارق كبير . وتاريخه عليه السلام يكاد يحوي كل صغيرة وكبيرة من تعبده . بل كان يسأل بعد الاسلام عن كل شيء . ولم نجد في عمل من أعماله دليلا على اتصاله بالاديان الاخرى

ولكن هناك أمر واحد تمحك فيه جماعة المبشرين بعد أن غذاهم به فريق المستشرقين تلك هى القبلة الاولى وزعيم هذه الفرقة هو ستوك هرجرونيه وفنسنك طريد المجمع اللغوي الملكي . وسنبين هذه الشعوذة عند الكلام عن هذا الرجل الذي وقفنا معه موقفا خالدا في هدم المستشرقين . على ان ذلك كان بعد البعث ولا شأن له بموضوعنا الآن . وعلى ان الاعمال الثلاثة التى كان يدين بها قبل البعث هى المجاورة في الغار وإطعام المساكين والفقراء فاذا انتهي ذلك الشهر طاف بالكعبة سبعا

فهل هذه الاعمال تمت بالصلة لاي دين من الاديان السابقة ؟

إذا كان هذا التعبد ان صح تسميته بهذا الاسم مصدره الغريزة والالهام وحده فهو على حكم الوراثة من جده الاعلى ابراهيم واسماعيل قد شق له طريقا وحده

ولم يقل لنا المستشرقون ومن جرى مجراهم أنواع هذه الصلة التي قالوا عنها بل اكتفوا بهذا الوضع للتشكيك لاغيره والا فاني اتحدي من يقول بأن هذه الاعمال التى كان يقوم بها محمد ﷺ متخذة من الاديان السابقة اللهم الادين الحنيفة دين الاسلام وملة ابراهيم، ومحمد بغرائزه والهامه شق له طريقا وحده ولم يتشيع لدين ما قبل بعثه . وإلا لكان الكافرون من أهل زمانه حاجوه بما كان يعترف به أو يعمله وليس في القرآن إشارة ما إلى ذلك مع انهم حاجوه بكل انواع الحجج وطعنوه بجميع انواع المطاعن الا هذا . فهل ماخفى عن معاصريه اكتشفه المستشرقون في آخر الزمان . ؟

سبحانك هذا بهتان عظيم

الفصل الرابع

محمد ﷺ وروح الاجماع عند البعث

رأيت في الفصل السابق ان دين محمد ﷺ وتصرفاته قبل البعث كانت كلها من منبع الغرائز والالهامات العالية

وقديما قال الحكماء ان السر في عدم انجابه ذكرا ان أي ولد يخرج من صلبه كان محتوما ان يكون في درجة من النقاء يصل بها إلى درجة النبوة . وموت أولاده الذكور كان قضاء وقدراً لانه معد لتلك الرسالة العظمى التي ختمت به

ويقول لنا درمنجغام إن موت أبنائه قد زعزع عقيدة زوجته السيدة خديجة في الاصنام . واتى لنا بقصص كلها خرافية جديرة بان نهملها (١)

والآن نتفوجها لوجه مع جماعة المستشرقين كلهم الذين كتبوا ويكتبون عن حياته كرجل عظيم . ونريد ان يتمشى معنا القاريء في هذا الفصل اتري هل كان محمد ﷺ رجلا عظيما فحسب أم نبيا ورسولا ؟ ولو جدت عبقرية عظماء الرجال في عصره وفي بيئته كانت تقوم بما قام به أم لا ؟

رأى الباحثون من المؤرخين أن العالم كان في وقت البعث في حالة انحلال أدبي وسياسي عم شطري الكرة الارضية

في الشرق كانت الصين والتبت تمزقهما الحروب الداخلية، والهند كانت

---

(١) يقول درمنجغام ان سبب زعزعة عقيدة السيدة خديجة فى الاصنام انها كانت تقدم النذور والحلي لتلك الاصنام طلبا لحياة ابنائها الذكور من سيدنا محمد ولما لم تفلح هذه القرابين تزعزعت ثقتها وأغرت سيدنا محمداً بهدم كيانها

على ان الواقع ان أولاده الذكور كلهم ماتوا بعد الاسلام فلو كان استنتاج درمنجغام حقيقيا وينطبق على نفسيته عليه السلام لكان موت ابراهيم آخر انجاله سببا فى ثورته عليه السلام على العالم أجمع . ومع ذلك فكل ما قال معاصرو النبى عند موت أولاده الذكور أن الله قلى محمدا فنزلت سورة (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وماقلى)

في فوضى أخلاقية نتيجة انتشار المذهب البرهمي الذي يعد من أركانه هبة البنات الابكار للآلهة وأن يقوم البرهمي فى دور الالهة في الاستمتاع بالعذارى مما لا يزال له أثر حتى اليوم ، وبهبة البنات للاستمتاع الديني في المعابد ويطلق عليهن اسم فتيات المعبد

وكان شمال غربي آسيا في حالة ركود وغموض ، وشمال افريقيا في حالة يرثى لها من الظلم الفاضح على ايدى فلول الرومان التي فقدت سمعتها الادبية ولم يبق منها الا بقية أنفاس تتردد كما تتردد آخر انفاس المشرف على الموت

وكانت اليونان تعانى ما تعانيه بقية البلدان لتبعيتها للدولة البزنطية . التي كانت مشتبكة في حروب مع الفرس الذين كانت جنودهم تعيث في أرض الروم فسادا حتى انحلت أمة الفرس نفسها

***

ومن هذا يتضح لك أن العالم كان في غمرة انحلال أدبي وسياسي ومادي وأخلاقي ولا يمكن تجدته الا بقوة خارقة تهديه سواء السبيل، على أن العالم لم يكن خاليا من بذور الاصلاح فقد كانت اليهودية معروفة . والنصرانية لها بابوية روما . ومازال هذان الدينان منتشرين للآن. كما توجد انقاض المدنيتين اليونانية والرومانية .

هنا نقف بالقارىء قليلا لنستعرض الآراء التي يقول بها منكرو رسالة محمد ﷺ ونتمشى معهم قليلا في استنباطاتهم لنرى إذا كانت تهيىء لهم مثل تلك الدعوى

قال المستشرقون ومن لف لفهم إن محمدا كان على اتصال علمي بالاديان الاخرى . وانه استقى معارفه ومعلوماته من سياحته في الشام وباحتكاكه بمن يحضرون إلى مكه للتجارة . وقد زاد الغامزون اللامزون بانه كان يحسن القراءة والكتابة (مرجوليث) بدليل الآية الكريمة (إقرأ وربك الأكرم)

وادعوا أن هـذا اعتراف بانه كان يعلمها . وانه قرأ عن كل شيء إن تصديق مثل هذا الكلام فيه كل العبث بالعقل البشرى ، أما سياحاته في الشام فقد سبق عنها الكلام في الفصلين السابقين

وهناك رأي آخر يقول به بعض المستشرقين وهو أن محمدا كان يقتدي بموسى عليهما السلام وأن دعوته كانت لحب السلطان.

يقول هذا القول المستشرق مرجوليث في كتاب تاريخ العالم العام ونقول رداً على هذا إن غرائزه والهاماته كانت واضحة تمام الوضوح وتصرفات الشخص في صغره دليل على غرائزه وميوله . ولم يكن في غرائزه عليه السلام مايؤخذ منه حب السلطان وحب المال والملك أو غرائز الهدم والافساد وحب الظهور وهى أظهر الغرائز في حياة الاطفال الذين يرجح أن يكون لهم شأن في المستقبل بل بالعكس كانت غرائزه العاملة هى التواضع والوحدة ونفي الخلاف، ولم يعرف عنه انه استغل سلطانه في الاستفادة المادية وهي أهم مايطمح اليه العظماء.

كذلك لم يشتهر بالشعر ولا بالدعاية لنفسه وهما أقوى المؤثرات في عصره وفي كل عصر مما كان يهيء له أن يجمع حوله جماعة الانصار يعدبها العدة للمستقبل الذي يتهيأ له لو انه شخص ذو مطامع

هذان هما الرأيان السائدان في كتب المستشرقين وهنـاك رأي ثالث يستنبطه بعض المشتغلين بالفلسفة الحرة وهو أن محمداً عليه السلام كان على علم قليل بالاديان السابقة غير انه رأى أن العالم محتاج للاصلاح المعنوى والنفسي وان لا وسيلة لاصلاح المجتمع الا بهدم الخرافات والمعتقدات الزائفة فبدأ بالدعوة لهدم كل هذا

وانك لتجد في هذا الرأي اثراً واضحاللثقافة والتعليم الرقي، فأصحاب هذا الرأى ما حكموا هذا الحـكم الا بعد الاطلاع على تاريخ العالم الذى لخصناه لك في أول هذا الفصل ثم درسوا المعتقدات التى كانت شائعة في ذلك العهد وكذلك

تعلموا الموازنة بين الاديان ثم درسوا التاريخ السياسي والاقتصادي للامم كلها حتي القرن العشرين ولذلك كان هذا الاستنباط لا يعد استنباطا بل يعد تقريرا لما حصل . ووليد الاطلاع على الاسباب والنتائج وهو تفسير لسر الدعوة التي قام بها الاسلام .

فهل كان يتسنى لرجل عاش في الجاهلية الاولى أن يعلم كل ذلك على غير معلم في صحراء جرداء قحلة ؟ وهل من الممكن لعقل بشري أن يسع كل هذا التحصيل والانتاج والتشريع وحده من غير معين من الاساتذة أو الجهابذة . مع ما علمنا علم النفس اليوم أن للعقل طاقة وللذاكرة احتمالات لا يمكن تجاوزها من غير ان يختل توازنها اختلالا عصبيا .

فأصحاب هذا الرأي يعرفون المقدمات والنتائج باجمعها فينسبون له عليه السلام قوة لا يتسني لاحد من البشر ادراكها في ذلك الوقت الذي بدأ فيه الوحي وهنا سر اختلال هذا المنطق — وهذا الرأى . ففرق كبير بين أن تدرك الامر من أوله وبين أن تعرفه بعد نهايته باربعة عشر قرنا . وان تعرف أسباب نجاح الدعوة وتضيف اليها استنباطا من عندك ـ بعد ان تقرأ كل ذلك في كتاب واحد مأخوذ من آلاف المصادر .

ولو أدت دعوة محمد ﷺ إلى نتيجة عكس ما ادت اليه لما عدم أصحاب هذ الرأي الف حجة على خطئها وعدم ثقافة الداعي لها مما سنشرحه فيما بعد .

وهنالك رأي أخير وهو على ما فيه من تهاون جدير بالذكر والتمحيص وهذا رأي أصحاب الفسلفة الحرة ايضا . وهو أن ليس لعظماء الرجال حاجة إلى التعليم وان اكثر العظماء لم يكونوا من المثقفين بل يكفي للنجاح فكر صاف وقلب طاهر جبار وعزيمة صادقة واخلاص حر عميق وايمان ثابت

وانا لنقف برهة أمام هذا الرأي لنقلبه ونقف علي كنهه لان نواحى عظمة

الرجال متعددة . فاذا صدق هذا القول عن رجل سياسي يقيم ثورة أو يهدم عرشا . او يفتتح دولة ، أو يستأثر بسلطة فانه لا ينطبق على صاحب دين أساسه قوة الحجة وسلامة المنطق ، ويتناول التاريخ القديم والحديث في زمنه فينفي ويثبت ويناقش ويجادل ولا بد لهذا كله من ثقافة واطلاع لا وسيلة للالمام بها

فاذا كانت الالهامات والاخلاص والايمان وحدها هي مصدر كل هذه المعلومات فاننا لانشك ان مسافة الخلاف بين منكري النبوة والمؤمنين قد قربت إلى أدنى حد لان الالهامات التي تتحدث بالغيب وتعلم المجهول وتحيط بتاريخ الاوائل والاواخر وتنفي وتثبت بطريق القطع والصواب هذه الالهامات هي فيض من قبس الرحمن ورسالة من الملأ الاعلى

وليس الصدق الصرف والاخلاص الحر والايمان الثابت الذي لا يتحدث به صاحبه ولا يكتسب به شيئا من حطام الدنيا بل احتمل مرارتها لهداية البشر وانقاذ الانسانية — ليس ذلك كله — الا مرتبة من مراتب النبوة .

وهناك مسألة جديرة بالنظر والتفكير وهي أن الاسلام ليس للزهد والآخرة فحسب . بل نظم أعمال الانسان في الدنيا لتكون وسيلة الى الآخرة . وشرع من القوانين في الحياة المدنية ما ينظم الهيئة الاجتماعية . وعلاقات الافراد والامم . وهذه ليست طريقة عظماء الرجال رجال الدول . أو رجال السيف . بل المعروف عن كل عظيم انه استعان بالاحكام العسكرية ليمنع حرية الناس في حدود القوانين التي يضعها لصالح الدولة أو الفكرة التي يقيمها وهذا هو الامر الشاذ في دعوة الاسلام . فلقد كانت مبادئه عامة

ولننتقل الآن إلى مسألة أخرى جديرة بالنظر والبحث وهي اننا لو فرضنا محمدا صلى الله عليه وسلم رجلا عظيما فحسب هل كان يتبع تلك الخطة التي اتبعها في نشر دعوته ؟ وهل كان ينتخب لها ذلك الوسط والزمن اللذين قام فيهما ؟ وهل كان من صالحه أن يقوم بهذا النوع من الدعوة لله

لقد أجمع المؤرخون أن مكة كانت وثنية حقا . ولكن ما الضرر الذي يصيب العالم من عبادة الاوثان أو الاحجار مادام ذلك لا يؤثر في حياتهم ومعاشهم . وهذه أمة اليابان مثلا تغلغلت في الوثنية إلى العهد الحديث ومع ذلك طفرت إلى المجد طفرة واحدة فالضرر الذي يحصل من عبادة الاوثان إن هو الاضرر فى نوع من انواع التفكير الصحيح . وإذا كان الدين هو معرفة حقيقة الله فقط من غير أن يكون وراء هذه الحقيقة مبادىء أخرى تنقذ البشرية من براثن الاوهام واستغلال العقول لتساوت جميع الاديان . وهنك أديان تكاد تلمس التوحيد ولكنها خالية من روح المنطق فترى في هذه الاديان أن البقر معبود يقدس . ويعد روثها بركة وتشرب أبوالها في حين تعد فريقا من الناس نجسا لا يصح لمسه ويجعل هذا الفريق من الناس محكوما عليه أن يعمل في الاقذار والاوساخ . فما الفائدة التى تعود على العالم من مثل هذا غير العبث بالانسانية .

وهناك بعض الفرق التي اخترعت لها مذاهب في الاديان السماوية ورجعت بالانسان القهقري الى انواع عبادة الاصنام والاشخاص . فيوزن صاحب المذهب بالذهب كل عام ويؤخذ هذا الذهب من اتباع مذهبه ، ومن هذا يتضح لك أن التوحيد هو تحرير الفكر من كل شيء ؛ ولنرجع إلى ما كان سائداً في مكة .

فالمهم والواضح أن اليهود — اتباع الدين الالهي الاول — كانوا يستغلون أموال هؤلاء الوثنيين بالربا الفاحش إلى حد استعباد الناس ودفعهم ببناتهم للبغاء تسديداً للديون الباهظة التي جرها الربا الفاحش

وقد كانت حالة العرب الوثنيين من الفقر والاملاق والبؤس والتشريد مما يستوقف النظر العادي . وكانت مصيبتهم الاقتصادية والادبية مما يبعث على التفكير في هدم اليهودية لا الوثنية . فاذا أضفت إلى ذلك أن مكة ليست بلداً زراعياً بل واد غير ذي زرع تكتنفه الجبال والصحارى علمت أن كل أرزاق

الناس كانت من التجارة ورعاية الماشية في الاماكن البعيدة .

ومكة على حالها الآن أهون بكثير من مكة قبل الاسلام . فمورد مياهها الآن متوفر من [عين زبيدة] الذى جر اليها بعد الاسلام وكانت قبل بلقعا جافا .

وإذا عرفنا أن محمداً ﷺ كان تاجراً فان هناك مسألة لابد أنه كان يعرفها . وهي أنه رأى بعينيه وسمع باذنيه ، صدر الم الناس وفقرهم هذا الفقر الذي يقاسيه أهله وعشيرته من الربا والاملاق نتيجة طغيان أصحاب رؤوس الاموال من اليهود الذين استأثروا بتشريع القوانين بمكة ، فاذلوا بهذا التشريع أعناق العرب ودفعوهم دفعا إلى استثمار اعراضهم في البغاء (١) .

فالرجل العظيم الذي يوجد في مثل هذه الظروف لو كان غير محمد ﷺ ونصب نفسه للدفاع عن المظلوم ونصرة الضعيف فانه كان يتخذ طريقا مباشرا للقضاء على أصل الداء من منابته والتاريخ يدلنا على أن عظماء الرجال الذين عاشوا في مثل تلك العهود وجهوا جهودهم لاقصر الطرق فقاموا بالدعوة الاشتراكية ومحاوبة أصحاب رؤوس الاموال ، أو البلشفية أو غير ذلك مما تراه مفصلا في كتب التاريخ عندما يستأثر بعض الناس بالامن ويستبدوا بالنفوس ، ولعل دراسة أعاظم الرجال تدعونا الى تأييد هذا الرأي — فنابليون مثلا لما رأى الثورات تمزق فرنسا لم يقم بدعوة الى الزهد بل عمل على حصر السلطة في يده من طريق الحرب والقيادة ، وانتظم في سلك الجنود حتى وجه الانظار الى مهارته كقائد وأظهر نفسه وكبر من شأن عبقريته بفتح ايطاليا ثم عمد الى كل الطرق التي تجعله قنصلا فامبراطوراً

ومحمد على باشا . عمل مثل هذا أيضا

---

(١) نعم إن البغاء كان فاشيا في الاماء وكن يشترين للاتجار باعراضهن وفي ذلك نزل النهي في القرآن (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) وقلما كانت تزني حرة

وكان أسهل طريق أمام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يستغل عبادة الاوثان ولم يكن فيها وفي مبادئها شيء عن الربا، فاذا جمع القلوب حوله وقبض على ناصية السلطة ضرب نفوذه على ما حوله واستغله في الاصلاح وأول ما يوجه نظره هو الحالة الاقتصاديه والادبية من طريق مباشر يمنع كل ما كان يشكو منه الناس

والمطلع على تاريخ العرب في الجاهلية يرى أن الدعوة كانت ممهدة لمثل هذا الرأي، وما كان عليه الا أن يستثير عواطف الناس في سوق من أسواق العرب ويدعوهم الى دعوة اقتصادية صرفة فيلتف حوله جماعة من أشداء السواعد ومفتولي العضل ويهاجم بها بيوت اليهود فيأخذ أموالهم ويطردهم ويحرر الناس من رقهم المادي. ويدلنا علي صحة هذا الرأي ما نراه متجليا من روح الكراهية لاصحاب رؤوس الاموال. وانتشار الدعوة الي الرفق بالمظلوم فقد كانت الشعراء والخطباء مهدت فعلا الطريق الى مثل هذه الدعوة وتألف فعلا أنصار لمن يقومون بمثل هذه الدعوة يدلك على ذلك اشتات من قصائد وأشعار جاهلية في وصف هذه الحالة كقول بشر بن المغيرة عن اليهود:

وكلهم قد نال شبعا لبطنه وشبع الفتى لؤم اذا جاع صاحبه

وقال الاعشى:

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

كما يدلك علي ذلك عادة وأد البنات في طبقة الاشراف ضنا بهن ان يكن في يوم من الايام موضع استغلال للبغاء

فمن من عظماء الرجال يكون في مثل تلك الظروف ولا يقوم بحرب مباشرة ويستغل هذا الشعور الملتهب ويضرب في الصميم بنهب اليهود وقتلهم، هذا هو الرأي الذي توحيه الظروف، معاداة اليهود وكراهيتهم وطردهم، ولكن جماعة المستشرقين يقلبون الحقائق ويقولون ان محمداً أراد استغلال اليهود وهذا هو المنطق المعكوس والكلام الهراء الذي لا يقوم عليه برهان، فالعلل التي كانت

تشكو منها الانسانية لم تكن متجهة الى العقيدة بل الى انواع المعاملات المدنية والاجتماعية .

اما أن يقوم محمد ﷺ ويفكر في طريق شاق ملتو ويبدأ بمعاداة أهل في عقائدهم . ويسفه جيرانه وقومه في آرائهم ويهزأ بعقليتهم فأول ما يقابل به هذا النوع من التفكير في تلك الظروف هو تلك تهمة التى اتهموه هم أنفسهم بها أنه مجنون . لان هذا يثير الرأى العام عليه وما كان يقول به عاقل حكيم — لو كان عليه السلام مستقلا لنفسه وحدها من غير قوة عليا تؤيده وتوحي اليه وتدفعه دفعا الى هذا الطريق الشائك المملوء بالمخاطر .

كما أن مكة البعيدة السحيقة لم تكن أصلح مكان لمثل هذه الدعوة لان الشخص العادي الذي ينظر لي اصلاح العالم لا ينتخب اقل البلدان عمرانا لدعوته . وماذا يكون رأي العقلاء لو قام رجل في أقل قرى الصعيد شأنا ليدعو دعوة اصلاح سياسي أو عمراني في مصر كافة . أو في العالم أجمع ؟

ومن المدهش أن الدعوة من أولها انبثت على مبدأ واحد هو الدعوة لله وحده . أليست هذه طريقة ملتوية ؟ وما الذي جعله يتمسك بدعوته هذه بعد أن سعي اليه زعماء العرب وأهله يولونه رياستهم ويعرضون عليه السلطان المطلق في الامر والنهي فابى ولو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره ؟

لقد كان في استغلال شعورهم هذا ملكا كبيراً ودولة يطرد بها مصادر ألم العرب وشقائهم . وكانت فرصة ذهبية لجمع القلوب حوله وضرب المرابين واصحاب رؤوس الاموال ومفسدي الاعراض

لنقف قليلا ولنتدبر . ألم يستغل كل عظماء الرجال مثل هذا الظرف ؟ ألم يخلق نابليون ومحمد علي وكرومول وغيرهم مثل هذا الظرف ؟ وان تاريخ عظماء الرجال يخبرنا أن أول عمل يقومون به هو استغلال عواطف الناس لا معاداتهم في عقائدهم وأخلاقهم .

أما ان يبدأ شخص ما بمعاداة الناس وتحديهم كلهم . وضرب كرامتهم وعزتهم وعقولهم . فضرب من السياسة لم يعرف قبل سيدنا محمد ولم يعرف بعده. وهذا تاريخ سيدنا موسى وسيدنا عيسى أمامنا وإنا لنري ان دعوتهما تخالف هذا كل المخالفة . ولكل نبي ظروف وآية

والخلاصة :

(١) ان نفسية أي رجل عادي عاش في ذاك الزمن ما كانت لتتخذ من وسائل الاصلاح مثل هذا الطريق الشاذ

(٢) ان أسهل الطرق لاستغلال الشعور لم يكن قاعدة . بل كانت القاعدة تحدى الناس أجمعين وهذا ضرب من الاعجاز

(٣) ان الذين يعترفون بالالهامات العالية في نفسية سيدنا محمد ﷺ يقتربون من الحقيقة لو عرفوا أن هذه الالهامات فوق مستوى البشرية

(٤) الذين يحكمون اليوم على السيرة الشريفة بأسبابها ونتائجها لو عاشوا في ذاك الزمن لكان لهم رأي آخر .

※※※※※※※※※

الفصل الخامس

التوحيد هو روح الحرية

كان بودي أن أجعل مقدمة البحث في التوحيد ملخصا لنشأة فكرة الاديان في العالم وأن أتناول بالتحليل كل دور من أدوار التفكير الانساني الاول على ثقافته الضئيلة ليعثر على سر الوجود ويتفهم تلك القوة المسيطرة على العالم فتسير به على هذا النمط المحكم الذي أدهش عقل الانسان منذ تكوينه إلى الآن

الا أن هذا البحث يعد من قبيل المعلومات العامة في التاريخ القديم وكثير منها معروف وفيه الدليل على أن فكرة الانسان في وجود قوة أكبر من قوته تكاد تكون في قدمها وعهدها كعهد الانسان على ظهر البسيطة وأن العقل أدرك بفطرته أن هذه القوة موجودة ولما أعيته الحيل في حسها ولمسها جهد ان يدركها من مظاهرها وأثرها في الحياة فعبد النيل لانه يقوت الشعب ويعود بالخير والبركات وعبد النار لانها مصدر قوة عظمى ويشعر بضررها فعبدها خوفا منها . وعبد الحيوانات المائية كالتماسيح لانه ظن أن الروح القوية أو روح القوة تحل فيها وقدس الابقار لان في لبنها قوة له ، ثم عبد أشخاص الابطال في صور من تماثيلهم لانه رأى فيهم قوة انسانية فوق قوة الانسان العادي، ثم فكر في أقوى المؤثرات في العالم فعبد الشمس وحدها.

كان الانسان في كل هذه الظروف يتلمس إيجاد سر الوجود والعثور على معرفة الحقيقة لروح الحياة

يقول بعض المشتغلين بالفلسفة الحرة أن الانسان لم يبحث بغريزته عبثا عن مصدر تلك القوة إلا لانه ضعيف في كثير من أوقات حياته وقليل الحيلة فيما ليس

من قدرته . وقليل الادراك لظواهر الطبيعة التي تبهر نفسه فهو في حال المرض لايقوى بنفسه على محاربة الداء. وفي حال الجدب لايقدر على انزال الماء من السماء . فلجأ من ضعفه أن يستمد العون من قوة أخرى تخيلها انها أكبر منه سلطانا على الوجود ورمز لها بتماثيل يسجد بين يديها يستمد العون منها ولو تمشينا قليلا مع هذه النظرية والغرض لخرجنا منها بنتيجة لاتقبل الشك وهي اعتراف الانسان أعترافا صريحا بعجزه منذ القدم إلى يومنا هذا في حل سر الوجود بعقله المطلق . وفكره الشخصي مهما علت ثقافته . ومهدت أمامه أسباب العلم .

وهذه النتيجة هامة فليتذكرها القاريء لاننا سنعود اليها فيما بعد . غير اننا نشير الان الى أن اعتراف الانسان صراحة بعجزه وضعفه جعله ينظر الى العالم نظرة فلسفية من غير أن يشعر ، فقد اعتقد أنه لم يوجد لا ليكون ضعيفا ذليلا فتناهى في طلب الذل والتقشف والزهد والخنوع ، فاخذ يتلمس طرق ارضاء خياله عن القوة المسيرة للعالم من طريق اذلال النفس وقتلها بانواع شتى من التعذيب ترى صورا منها في الاديان القديمة التي ما زالت آثارها باقية حتى اليوم كفقراء الهنود الذين يتعبدون بالجلوس على المسامير أو رفع ايديهم الى أعلى حتى تجف أو تتقدد أو غرس شص من الحديد في ظهورهم أو يعلقون على الاشجار . وقد تغالى الانسان في زعمه هذا منذ القدم حتى قدم الدم الانساني قربانا لاستجلاب الرضا .

وقد يقال إن العالم تطور كثيرا ووجد فيه من العلماء والفلاسفة من أرشدوه الى معرفة شيء عن النفس الانسانية ومع ذلك لا نشك أن فطرة الانسان قد جعلته يفكر في القوة التي أوجدت هذه الكائنات وكانت فكرة الدين جزءاً من عقلية الانسان ، ونرى ذلك متجليا عند استكشاف (كورتس) لامريكا الوسطى

وتوغله في بلاد المكسيك لاول مرة حيث حدثنا عن وجود ديانات فيها لا تختلف كثيرا عن ديانات العالم القديم ووصف لنا المذابح البشرية قربانا للآلهة ، مما يدل على ان فكرة الدين واحدة في العالم القديم والجديد متأصلة وجزء من تكوين الانسان ، وان كان الطريق للعبادة مرسوما على قدر تفهم الانسان معنى الحياة كما يوحيه اليه ضعفه وعجزه والتماس معرفة تلك القوة العظمى التي أوجدته وصيرت العالم بذلك النظام البديع الذي بهر نفسه

واذا تتبعت تاريخ هذا التطور وجدت أنه حتى بعد ظهور أديان سماوية استمر تعذيب النفس واحتمال الاذى وكانت منتشرة في أوربا في البلاد التي يفتحها المسلمون حيث يحدثنا التاريخ ان بعض المتقشفين أخذوا يعذبون انفسهم تقربا لله بأنواع من العذاب كربط الساق حتى يتغنغر ويفسد ويتساقط منه الدود ، وكعدم الاستحمام وعدم تغيير الملابس حتى تتساقط من نفسها ، وكالجوع باستمرار حتى الاشراف على الموت أو غير ذلك من ضروب الاحتمال للآلام (١)

---

(١) جاء في صحيفة ٦٠٣ من كتاب دنيانا الغريبة — أن المسيحية في القرنين الاولين منها كانت تعد تعذيب الجسم أرقى صفات التقى فالقديس هيلاريون لم يحلق الا مرة في العام في عيد الفصح. ولم يغتسل أبدا حتى صار جسده كالحجر الخفاف ولم يغير ملابسه حتى تتساقط من نفسها

والقديس مكاريوس كان يحمل دائما ثمانين رطلا من الحديد وينام في مستنقع لكي تلدغه الهوام. والقديس يوزيبس عاش ثلاثين سنة في بئر جافة وكان يحمل مائة وخمسين رطلا من الحديد . إلى غير ذلك من أنواع التعذيب

our wonderful world p. 603

والحكيم العربي يقول : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ، وجاء في الآثر : ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض لنفسك عبادة الله ، فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ،

وفي كل ظرف من هذه الظروف نرى ظاهرة أخرى في تفكير الانسان وهي ان هناك واسطة بين الانسان وتلك القوة القادرة التي تخيلها فاستغل قديما جماعة الكهنة في مصر ذلك حتى نازعوا الملوك سلطانهم وفي البلاد التي ما زالت في الوحشية الاولى أقامت أمثالهم مقام السحرة أو غير ذلك مما يطول شرحه وفي الهند نرى سلطان كهنة المنبوذين يكاد يشاطر الرجل رزقه وانهم يعيشون عالة على الناس من قبيل الاستهواء الديني

***

بعد هذه المقدمة الوجيزة لتاريخ فكرة الدين نعتذر عن عدم الاطالة لان هذا الموضوع من المعلومات العامة التي يستطيع الباحث ان يجدها في الكتب المتعلقة بهذا الموضوع ولعله يستطيع اذا اطلع عليها ان يلم بها إلماما تاما وان يعرف أن التوحيد في الله كان معروفا حتى قبل ظهور الاسلام لان هناك اديانا سماوية سبقته ولكن كبار عقول الفلاسفة حتى بعد ظهور الاديان أخذوا يتلمسون اسبابا منطقية ليقنعوا انفسهم بوجود خالق.

ويطول بنا أيضا شرح هذا إلا أننا نشير إلى أنهم انقسموا ثلاث فرق

(١) فريق نظر إلى الاديان بفكره الفاحص فقط ثم اقتنع

[٢] وفريق فرض الشك وأراد أن يقنع نفسه من طريق التشكيك في كل ما أمامه من الاديان

[٣] وفريق ترك كل هذا واراد أن يبحث عن سر الوجود بنفسه . فاما الفريق الذي اقتنع بنفسه ببحث الاديان التي أمامه فلا مناقشة لنا معه

وأما الفريق الذي أخذ يتشكك ليقنع نفسه من طريق الشك فعلى رأسه [ديكارت] وهذا مذهب أقل ما فيه أنه مبنى على زعزعة المنطق وان الرجل يفرض نفسه مثلا أعلى في الكمال العقلى فيريد أن يقنع نفسه بنفسه لامن طريق

تفهم الشيء بذاته بل طريق التشكيك فيه . وهنا لا بد أن تعترض الشخص أمور أكثر تعقيداً من أن يحلها بنفسه ولنضرب لك مثلا ديكارت نفسه لا يعرف شيئا من العربية فلا يمكن أن يعرف إعجاز القرآن . وديكارت لا يعرف شيئا من علم الفلك فلا يمكنه أن يفسر الآيات التى تعد إعجازا في علم الفلك . كما توجد آيات أخرى تعد اعجازا في الطب لا يمكنه فهمها .

ومن عيوب العقل الانساني انه كثير الزهو بنفسه وان الفيلسوف يظن نفسه بطلا في كل شيء . مع ان دينا كالدين الاسلامى تناول كل أنواع التفكير والتشريع وهذا أكثر من ان يحكم عليه انسان واحد .

أما فريق الماديين فليس من موضوعنا مناقشتهم لاننا نري في القرآن اعجازاً يقنعهم وان الاسلام يتمشى مع العلم جنباً الي جنب وان في آيات « خلق الانسان من علق » و « خلقناكم من طين » و « خلقناكم أطواراً » لادلة اذا تفهمها هؤلاء الناس لخروا ساجدين إلا اننا لا نتكلم في هذا البحث الآن. وانما نقتصر على الاعجاز النفسى في الاسلام . على اننا نرى من وجهة أخرى ان الموضوعات العلمية الفنية تتمشى جنبا الى جنب مع الاسلام فأول آية من آيات القرآن الكريم « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم »

فأنت ترى أن أول نداء للاسلام كان على دعامتين . الله والعلم . وتري كثيراً من آيات القرآن أحالت على العلم تفهم دقائق الحياة وعناصرها . وتركت للعقل البشري حريته في البحث والاستقصاء . وتركت للفكر والسمع والبصر والافئدة سبيلا لمعرفة الله عن طريق العلم : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » ولقد قامت الدعوة الاسلامية على مناقشة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان .

والظاهرة الغريبة جدا أن الاسلام لم يجعل فاصلا بين المرء وربه وجعل الناس كلهم سواسية . ان أكرمكم عند الله اتقاكم . وما محمد لا رسول قد خلت من قبله الرسل وهو انسان كجميع الناس لولا انه نبي كريم وبهذا ترى أن التوحيد ضرب الحجر على العقول ضربة قاضية . وضرب استضعاف المرء لنفسه ضربة قاتلة . وساوى بين الناس جميعهم ، كما هدم كل أساس للافكار الخيالية في التقرب من الله بطريق تعذيب النفس — ان هذا الدين متين فاوغل فيه برفق كما ضرب الوساطة بين العبد وخالقه ضربة لاقيام لها

انظر وتأمل هذا النبي الكريم . على جلاله وعظمته وعلى مكانته عند الله والناس لما رأى رجلا مقبلا يرتعد رهبة قال عليه السلام [خفض عليك أنا ابن أمرأة كانت تأكل القديد بمكة)

في هذه الحادثة وحدها : وفي هذا الحديث وحده كل معاني الحرية وكل معاني المساواة وكل معانى حكمة الاسلام فى الحريه الشخصية

ولنذكر لك أثر التوحيد في تكوين النفس ، وكيف تطور الفكر الانسانى بمبدأ التوحيد ، ونبتت عند الناس فكرة الحرية الشخصية والدينية منذ الساعة الاولى التى قرع سمع العالم هذا النداء الاسلامى

لقد كان طبيعيا أن تصادم هذه الدعوة الحرية بكل معانيها بالعقائد التقليدية التي سبقت الاسلام . وهي عبارة عن اعتراف الانسان بضعفه اعترافا صريحا — كما تقدم — واقراره بحدود ضيقة لعقله لفهم تلك القوة الهائلة المسيطرة علي العالم وعبادة البطولة والابطال والقوة في رموز من التماثيل يستلهمها وقت الضيق ، ويتقرب منها عند الحاجة ، فقام نزاع شديد بين هذه التقاليد الموروثة فى الجمود الفكري

ورأى الناس الدعوة لله والعلم عن طريق الفهم والحجة والبرهان والعقل فنشبت معركة هائلة بين العقل والقوة ، ومظاهر القوة مادية محضة فلجأ المكذبون إلي ايذاء النبي وصحبه وانزال العذاب بهم مما يشيب لهوله الولدان ، بالضرب وبالحرق ، وبالكي ، بكل انواع الوحشية

ذلك لان عقول هؤلاء الناس لم تكن في أدمغتهم ، ولكن في أيديهم وفي أدوات اعتداءاتهم ، كما رباهم على ذلك هؤلاء الناس الذين استغلوا ضعفهم الفكري ، فاستغلوا عواطفهم لاستدرار الاموال منهم

ولقد صبر محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه على الاذى والعذاب ، وهذا الصبر والثبات في موضعهما ضرب من ضروب تطور الفكر الانساني من حال إلى حال ، فالناس قبل الاسلام كانوا يحتملون العذاب تقربا من الله ، ويحتملون الاذى الفكرى من غير فكرة معينة عن الله ولكن أصرار المسلمين على عقيدتهم ، واحتمالهم الآلام في سبيلها ، هو دفاع عن حرية الرأي والعقيدة دفاع عن حرية التفكير ، دفاع عن الحرية بكامل معانيها ، فصاروا يقبلون العذاب في مقاومة العادات والاخلاق الموروثة ، وفي سبيل تحرير الفكر

وهناك ظاهرة غريبة . أغرب ما يتصوره العقل . فقد مضت ثلاثة أعوام على دعوته صلى الله عليه وسلم ولم يتبعه الا ثلاثة عشر شخصاً وهذا يدلك على مقدار جمود الفكر في تلك الايام . وإذا قست ذلك عما يحصل في زمننا هذا لوجدت فرقا كبيراً . فان حرية التفكير الآن تجعل كثيراً من الناس يعتنقون المبادىء الحديثة أيا كانت . حتى المبشرين والمستشرقين تجد لهم أتباعا وأنصاراً

على ان الغريب في هذه الظاهرة في ثبات أصحاب النبي على الاذى انه لم يكن بيديه شيء ما من حطام الدنيا ولم يكن لديه من المغريات ما يغريهم لهذا الاحتمال . ولو كان رجلا عظيما فقط كما يدعي المستشرقون لغير من خطته وحبب دعوته الى الناس بتغيير وجهتها لاقرب طريق الى عقولهم

ولكن هكذا كان ، فالاديان التي سبقت الاسلام كان لها زعماء من رجالاتها قد استغفلوا العقول ، فقضوا على التفكير قضاء يكاد يكون مبرما ، ولذلك كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم شاقة في بناء التفكير الانساني من أساسه على مبادىء صحيحة هي توحيد الله ، وأما ما بقي من الدنيا فقد صار مباحا للعقل والفكر في حدود المنطق الحكيم

ولقد رأيت فيما قدمنا من أحوال العالم وقت البعثة ان العالم كان في حالة جمود فكري وركود سياسي وأدبي وان المرأة كانت في الدرك الاسفل ، وان الرأسمالية كانت طغت على العالم وملكت أزمته ، ولم يكن هناك وسيلة لانهاض العالم من عثرته

فلما دوت كلمة التوحيد والعلم والتفكير ، عرف العقل مكانه ومقامه ومركزه في الوجود ، وعرف الناس انهم كلهم سواء لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وان لا سلطان على العقل ولا رياسة للعقائد ، وان الثواب والعقاب ليس بيد انسان كائنا من كان والجنة لاتباع ولا توهب ، وان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة «اطلبوا العلم ولو بالصين»

وهكذا تحررت العقول وعرف الناس قدر أنفسهم ، وانه لا فارق بينهم ولا شيء يسيطر على افهامهم ، غير العلم ووحي الضمير عن طريق الفهم والحجة

هذه هي المبادىء التي لا توافق الاستعمار ، والتي يعمل المستشرقون منذ القدم على مقاومتها ، وهي التي قال عنها « سيكارد » ان الاسلام في روحه الخاصة ينافي مصلحتنا فيجب التقليل منه بين الشعوب الخاضعة لنا

هـذه هي المبادىء التي جعلت للاسلام أعداء من المسيطرين على البلاد الاسلامية فربوا فريق المستشرقين لكي يناهضوها

وهذه المبادىء هي الحرية والاخاء والمساواة التي تمخضت عنها الثورة الفرنسوية بعد عشرات السنين من الهول والمذابح البشرية وبعد اثنى عشر قرنا من ظهور الاسلام ، وبعد أن قررها القرآن حقا من حقوق الانسان ، وجعلها أساس العقيدة ، وفرضها على الناس دينا وايمانا قبل ان تكون مبادىء

ثم انظر إلى قرارة الآلام البشرية التي ولدت في الثورة الفرنسوية ما سموه حقوق الانسان في الوجود والحرية الشخصية والفكرة

على أن هذه الثورة لم تكن الا لانتزاع حرية الناس من أيدي العابثين بها ووازن بين ذلك وبين المبدأ الاسمى الذى وضعه القرآن في الحرية الشخصية والمساواة بين الناس حتى النبي نفسه لم يدع سلطاناً ولا سيطرة وانه لا يملك لنفسه شيئاً إلا ما شاء الله (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون)

أليست هذه هي مبادىء المساواة بأوسع معانيها . خصوصاً إذا أضفنا إلى ذلك آية (ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك)

قلنا ان الانسان الاول اعترف صراحة بضعفه وتمثل القوة العليا في الاشياء البارزة القوة والفائدة كالشمس وفي لابطال فصورهم بتماثيل يتذكرهم بها ويتقدم إلى هذه التماثيل بالقرابين والخشوع والاستذلال وكان أول معجبات التوحيد محو هذا أيضاً ليكون الفكر حراً من مؤثرات الاشباح التي تلوح دائماً للعين فتؤثر في العقيدة . وحرية الفكر . ولئن كان في الاديان الاخرى شيء من ذلك فان من قاموا بعداوات التماثيل (١) سموا أبطالا للاصلاح الفكري الديني وهذا جزء قليل من أجزاء التوحيد وعنصر من عناصره . أفلا ترى بعد ذلك التأثير النفسي للتوحيد وأثره في حرية الفكر والصراحة في تحرير الفكر من كل قيد يؤثر فيه ؟

وهلا ترى معي ان أثر تكريم بعض الاشخاص باقامة أضرحة وقباب عالية من قبيل الذكرى التاريخية فقط بين المسلمين قد جر السذج والهمل من الناس الى الاعتقاد بأمور تتنافي ودينهم .؟

(١) مارتن لوثر . صاحب مذهب البرتستنت

اذن فالتوحيد الصريح أساس المساواة بين الناس . وجعلهم كلهم طبقة واحدة وهذا هو الاخاء الانساني للشعوب جميعها ولم تتمخض الاجيال كلها عنه إلا بعد الحرب العظمي في جمعية الامم وان كانت هذه الفكرة لم تبد صريحة للآن . إلا ان التربية والتهذيب والرقي الفكري سيجر العالم إلى المبادىء الاسلامية على رغم من يتبجحون بانكاره وعلى رغم أنف الجمود الفكري الذي طغى على العالم بتأثير قوم يستفيدون ويستمدون نفوذهم من تقييد العقل وتضليله وعدم تحريره

ويقول بعض المشتغلين بالفلسفة الحرة — لماذا يعتمد الانسان على الدين في فهم الفضيلة والاخاء ؟ ولماذا لا يبلغ ذلك بالتعليم وان يعمل الخير لانه عمل انساني وان يأنف من الشر لانه عمل وحشي ؟

وهذا القول على ظاهره مسحة من العقل ولكن منطقه ناقص وغير سليم، لان العقول البشرية تتفاوت في تقديرها للخير والشر . وما تراه بعض الامم خيراً يراه غيرها شراً في العادات البسيطة، وقدمر بك ان الامم التي لم تتمدن جعلت الذبائح البشرية قربانا للالهة عملا خيراً . وقد تدهش اذا علمت ان الرقي والتعليم مهما كان تقدما لم يغيرا شيئا من عقائد البوذيين في الهند . وان اكبر الزعماء كغاندى على علمه وفضله يقول ان الزلازل غضبة من الله . ولامانع من الاعتقاد بذلك ،وان كان لها أسباب طبيعية معروفة ، وقد يكون ذلك من باب موافقة أقدار لاقدار . ولا زالت المرأة التى في حالة النفاس قذرة تعامل بالاهمال في أقذر مكان . ولا زالت القابلة التي تولدها تدخل عليها بأقذر الثياب ولا يزال للكهنة على كل شيء ضريبة حتى أصبح ربع السكان من الكهنة الذين يعيشون على هذه الاموال . وكذلك نرى في حياة المرأة حتى في اليابان أمراً لم تألفه النفوس في جميع أصقاع الارض وهو تقديم صاحب البيت

زوجته هدية لضيفه اذا بات في منزله (١) . مع ان اليابان من أرقى البلاد مدنية وتعليما ، وهذا يدلنا على انه لا يوجد ضابط للتعليم ولا حد للعادات

ومن هذا كان الدين الاسلامي عالميا، يضع حدود الغرائز والعادات ويضع قوانين لمعنى الانسانية ومعني البشرية ، وان العالم الآن مدين بنشاطه الحاضر الى تحرير الفكر الذي أوجده الاسلام ولو كره المبطلون

وهنا قد يعترضنا انسان فيقول لنا ان تحرير الفكر كان جزءاً من الفلسفة اليونانية ومن ضمن تعاليم سقراط وافلاطون وارسطو . ثم يكرر لنا الاقوال التي نقرأها دائما في الكتب الغربية من ان العالم مدين بحرية الفكر لليونان .

وان فضل العرب لم يكن الا نقل الثقافة اليونانية وتسليمها الى أوروبا الحديثة وان العرب أنفسهم مدينون للفلسفة اليونانية ونحن نعلم ذلك حق العلم ولكننا نقول ان حرية التفكير شيء ومبادىء العلوم الطبيعية والمنطقية شيء آخر ، وان دساتير اليونان القديمة ومناقشاتهم الجدلية كانت ضرباً من التجارب الاولى كان بعضها ناجحاً وكثير منها كان خطأً صريحاً كما ترى في علوم العناصر المكونة للعالم، والامزجة البشرية ، فالفلسفة اليونانية هي مبادىء العلوم ، ولكن حرية الفكر وتحديد الايمان على وجهة واحدة ، وجعل العلم مرتبطاً بالايمان ، وان لا حرج على العقل أن ينشط من عقاله ، وان تكون هناك شريعة بالقدر الذى يكفل الفضيلة ويمحو الضعف ويساوي بين الناس في حقوقهم المدنية والدينية — فهذه أمور لم تكن معروفة من قبل في أي شريعة أو دين .

أضف الى ذلك ان الفلسفة اليونانية قد خدمتها أوروبا ، وخدمها العرب

---

(١) وأبطلت هذه العادة حديثا من كثرة نقد الاوروبيين « جولة فى ربوع الشرق » لمحمد ثابت

قبلهم خدمة جليلة فمباحثها مستفيضة ولها الكتب الكثيرة المؤلفة بروح الانصاف والتضخيم والتكبير والشرح والتفسير فكانت هذه دعاية لتلك الفلسفة قد غطت على سمعة فلسفة أجل منها وسأعطيك مثلا ترى منه أثر هذه الدعاية

فأنت تعلم أن الاسلام وان كان دينا تاما الا انه في الحقيقة تشريع يعامل الغرائز الطبيعية ونزعات النفس في حدود العقل والحكمة وترى أن مدارس الحقوق في العالم الغربي تدرس القوانين الرومانية ونظام التشريع الدستوري في اليونان والرومان درسا مستفيضا ، وأما التشريع الاسلامي على ما فيه من جلال فليس موضوع دراسة علمية فنية ولا يعرفه أحد من المشرعين الاجانب . أفلا ترى معي الآن أن الدعاية للقانون الروماني والدستور اليوناني أكبر من قيمتهما بالقياس على القانون الاسلامي المدني والجنائي ودستور الشورى والحكومة الديمقراطية ؟

أليس هذا من قبيل تعصب أوروبا لاصلها اللاتيني حتى في الدراسات الحرة ؟ وقل لى كم متشرع في مقارنة القوانين يعرف ما في الاسلام من قانون مدني وجعله موضوع بحث في رسالة خاصة

ألست ترى معي أن دراسة حرية الفكر الاسلامية على مبادىء التوحيد موضوع جدير بالنظر والبحث المستفيض ؟ ألم يكن للتوحيد ذلك الفضل العظيم في جمع القلوب فكون وحدة بشرية بين الممالك المختلفة التي دخلها العرب ولازالت هذه الوحدة باقية الى اليوم على رغم تلك الخلافات التي يوقد لظاها المستشرقون والمبشرون وخلق مسائل الاقليات الدينية ؟ ولم يكن الفضل في كل ذلك الا لفكرة التوحيد التي متى اقتبستها الافهام واستوعبتها الافئدة كانت كلها في اتجاه واحد نحو الوحدة الانسانية والنهضة العقلية التي لا تفهم رجعية

ان المستشرقين والمستعمرين يفهمون ذلك حق الفهم ولذلك هم يعملون على مقاومة الاسلام

ولنتحدث لك الآن عن طرق تضليلهم

الفصل السادس

أثر التوحيد الاجتماعى

لم يكن الفضل في مبادىء الاسلام لشخص معين . قد علمت أن محمداً عليه السلام كان يضع نفسه موضع الانسان ، لا موضع صاحب السلطان ، وكان هو وحده المثل الكامل في البذل ، وفي العدل ، فلم يستغل يوما مركزه ودعوته العظمى لنفسه ولا لشيء من حطام الدنيا بل كانت دعوته خالصة لله ، ولتحرير الفكر ، فلم يأخذ نصيبا من غنيمة يزيد على نصيب سواه ، ولم يدع لنفسه شيئا خارقا ، ولم يقل ان صلته بالله تعالى تزيد على صلة العبد . — وكلنا عبيد الله — ولم يفضل الناس الا بأنه رسول الله ، وهذه منزلة اختاره لها الله سبحانه وتعالى

وكان أصحابه عليه السلام ينظرون اليه هذه النظرة أيضا ولذلك قال أبو بكر حين توفي عليه السلام ودهش الناس للخبر : (من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت)

وفي حياته عليه السلام لم يكن مستبداً برأيه في أمور الدنيا بل كانت أمور المسلمين شورى . وكان أصحابه يختلفون معه في الرأي ، والتاريخ يدلنا على أن سيدنا عمر اختلف في الرأى مع سيدنا محمد ﷺ في نحو عشرين مسألة وعزز الوحي رأي عمر دون رأي رسول الله ، أشهرها : مسائل قتل أسرى بدر ، ومسألة الحجاب ، ومسألة الخمر ، ومسألة الاستغفار للمنافقين ، الى غير ذلك

هذه الحقيقة ترشدنا الي مغزى كبير ، وغاية كبري من مغازي التوحيد والنظر الى ان الاسلام لايجعل سلطاناً على النفوس والعقول والافهام الا لله

وحده . وما دون ذلك فالجميع سواء وآراء الناس كلهم قابلة للشورى والفحص ولو كان الرأي لرسول الله نفسه

وليس بعد ذلك وضوح لتقديس حرية الفكر ، التي هي دعامة من الدعامات الاصلية في الانسان وهذا هو أظهر معنى من معاني الاسلام

ولكن جماعة المستشرقين يعمدون الى القاموس ويتفهمون منها معنى كلمة الاسلام . ويقولون عنه ما قال مرجوليوث ان معناه (الذل والخضوع) ومع ذلك لا يقولون انه استسلام لله ، بل يقولون انه — الخضوع فقط —

ولقد رأيت في فصل التوحيد ان المعنى الذي تعبر عنه كلمة الاسلام هو معنى تضيق به صفحات الكتب الضخمة ، وان له معنى روحيا واجتماعيا كما سبق ذلك .

ولذلك كان أول اثر من آثار توحيد الله وترك المعتقدات القديمة هذ التوحيد بين القلوب في قبائل العرب ، وهذا التوحيد في الاخاء بين الشعوب المتفرقة ، وهذه النهضة الكبرى التي جمعت الامم كلها تحت طابع واحد حين افتتح العرب الاقطار وورثوا ملك الفرس والرومان

وانك اذا تصفحت التاريخ لعلمت ان الامم الفاتحة الغازية لا تخرج عن واحدة من ثلاث

١ — أمة تتخذ الحرب صناعة وحرفة وموردا للرزق كالاتراك الاقدمين في فتوحاتهم فلا يعمرون ما يفتحون

٢ — أمة تجارية كالفينيقيين وانجلترا تغزو الممالك لفتح اسواق لتجارتها

٣ — أمة تطلب السعة من الارض لضيق اهلها بها فتغزو البلاد طلبا لمنفذ جديد يعيش أهلها فيه

وهناك من الامم من يفتتح الممالك حبا في الفتح ، كالاسكندر ونابليون

وأمثالهما وهؤلاء تموت فتوحاتهم بموتهم

ولم يحدثنا التاريخ ان أمة من الامم فتحت الممالك لاجل بث فكرة أو نشر مبدأ غير العرب بعد الاسلام ، فالعرب قاموا بفتوحاتهم لنشر المبدأ والفكرة وتعميم الوحدة البشرية

يتجلى لك ذلك من كتب رسول الله ﷺ للملوك والاكاسرة ، ولم يكن في هذه الدعوة غير نشر فكرة التوحيد ولم يكن عليه السلام من زخرف الدنيا بحيث يحاكي من كاتبهم في الارستقراطية والعظمة ولكنه كان يدعوهم دعوة ديمقراطية متواضعة

يقول مرجوليث — ان الاسلام هو الدين الحربي ، مشيرا بذلك الى الغزوات والى مبدأ القتال في الفتح الاسلامي والى تخيير الامم غير الاسلامية بين القتال والجزية

وليست المسألة في غموض يدعو الى كل هذا الغمز واللمز فالجزية هي نوع من الزكاة على غير المسلم (١) ، والاسلام دين فيه كل معاني الديمقراطية الاشتراكية والحرب وسيلة

ليس من ينكر ان للجهل عقوبة ، وليس من ينكر ان الجمود الفكري والاستسلام للتقاليد نوع من الرجعية العالمية وليس لمستشرق ان يلوم الاسلام على هذا وليس له ان يضع رأيه في كفة ميزان ورأي عقلاء العالم أجمع في الكفة الاخرى .

فها نحن أولاء قد عرفنا أن دعوة الاسلام لله ، ولله ما ليس في هذه الدعوة عار على الانسانية

---

(١) لاجل حمايته ومعاملته بما يعامل به المسلمون ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم فان عجز المسلمون عن حماية الذمي لم يكن لهم الحق في اخذ الجزية

وقد رأيت أن الزكاة فرض على كل مسلم . فكيف يعيش غير المسلم في هذا الوسط من غير زكاة .

وليس بيت مال المسلمين بمقصور على معاونة المسلم فحسب ، بل وغير المسلم بلا قيد ولا شرط

وليس أدل على تفسير هذا المعنى من مبادىء الاسلام التي شرحها النبي ﷺ والخلفاء الراشدون بعده ، وقد رأينا من أعمالهم المساواة المطلقة بين المسلم وغير المسلم ، وفي قصاص سيدنا عمر من ابنه لاجل حق امرأة مسيحية قبطية ألف دليل ودليل

وفي قوله رضي الله عنه « متى استعبدتم الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » كل مبادىء الاسلام من الحرية والاخاء والمساواة

وفي وصايا سيدنا علي للاشتر النخعي الذي ولاه على مصر ما يزيد الشرح ويجلي البيان ، ولقد قال له :

« . . . اعلم يامالك أني وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول من قبلك من عدل وجور وان الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ... ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فانهم صنفان اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق .

الى قوله : ثم الله الله في الطبقة السفلى ، من الذين لا حيلة لهم . والمساكين وأهل البؤس والزمنى فان في هذه الطبقة قانعا ومعترا واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم واجعل لهم قسما من بيت مالك وقسما من غلات صوافي الاسلام في كل بلد فان للاقصى منهم مثل ما للادنى - وكل قد استرعيت حقه ، فلا يشغلنك عنهم بطر ، فانك لا تعذر بتضييعك التافه لاحكامك بالنظر في الكثير المهم . »

ومن هذا ترى ان الجزية والخراج هما تنظيم للاحسان ، بلا فرق بين الاديان . لانهم متساوون في نظر الاسلام من جهة الخلق وليس جعل الاحسان قانونا بعار على الانسانية . وقد رأينا ان استجداء الضمائر للاحسان أخفق ولم يثمر في كثير من البلاد المتمدنة . والارتكان على العاطفة الانسانية وحدها لم يكف منذ هجر الناس مبادىء الاسلام الى اليوم .

ولعمرى انك لو اتخذت رسالة سيدنا علي هذه على حقيقتها لوجدتها تفسيراً واضحاً للسياسة الاسلامية ويكفي قوله لعامله « ان الناس إما أخ له في الدين أو نظير له في الخلق » أن يعرف الناس جميعا أن الاسلام لا يفرق بين الاديان في المعاملة وبالاخص في الاحسان والحق في بيت مال المسلمين .

والتفسير النفسي لكل ذلك هو أن الاسلام يعامل الغرائز البشرية بميزان العقل والحكمة والتشريع الاوروبي يعامل الناس بالتجارب والاختبار ، ولم يهتد إلى الآن الى أن الاسلام مبني على معرفة أدق بعلم النفس فالله الذي خلق النفوس حدد عقوباتها وحدد معرفتها . اذا علمت ذلك فلا اعتراض . ومن يقل ان هذا ليس من عند الله فليأت ببرهانه المنطقي الذي لا شعوذة فيه ، ويكفى ان مبدأ تحريم الربا أخذ الآن يتطور في أوروبا الحديثة الى شكل الافلاس في الدفع بتغيير أسعار العملة وتخفيض قيمتها فلا يدفع المدين لدائنه شيئاً ويكفي ان ألمانيا قللت من سعر عملتها الى الصفر لتجمع ذهب العالم ثم ألغت هذه العملة .

وليس من المجهول أن عقوبة الجمود لازمة .

فالتعليم الاجباري في كل بلاد أوروبا له قوانين تحميه وعقوبة الحبس توقع على من لا يعلم أولاده . وعقوبة السجن لمن يزور في ايراده حتى لا يدفع ضريبة الدخل . وضرائب الدخل والربح أصبحت مبدأ أوروبيا بعد ان قررها الاسلام بشكل أدق منذ أربعة عشر قرنا . في ركن من أركان الاسلام وهو الزكاة .

فهذه المبادىء التي تتقدم اليها أوروبا نتيجة الاختبار والتجارب هي المقررة في الشريعة الاسلامية . فطلب العلم فريضة على كل مؤمن ومؤمنة والنظام الاجتماعي في الشورى والسياسة العامة في الامن والعلاقات الشخصية كلها من تعاليم القرآن .

ولعل أبلغ رد على تعامل أوروبا بالربا وهي المعاملة التي حاربها الاسلام وحكم عليها بالموت هي تلك الظاهرة الغريبة التى تبدو في أوربا اليوم من قيام حكومات اشتراكية محضة تحرم الرأسمالية وجمع الثروة في أيدي فئة خاصة وهو سر تحريم الربا . لعدم استئثار فئة من الناس بالسلطة المالية والاستبداد بالعالم .

فهناك . لما وقعت أوروبا في الازمة المالية التي تنبأ بها الاسلام من التعامل بالربا . لجأت أوروبا وامريكا الى طرق الحيلة بفصل العملة عن الذهب فهبط ثمن النقود وأخذت تراوغ في دفع الفوائد بعد أن نقصت رأس المال تخلصا من ذلك الكابوس الاقتصادي .

أفليست بهذه الطريقة تتلمس طريقها في الظلام لتهتدي الى طريق الخلاص وشعاع واحد من أشعة الاسلام يجلو عن العالم ذلك الظلام الدامس . وهو عدم التعامل بالربا . ثم أنظر الى الخراب الذي حل بمن استدانوا من المصارف المالية وبيعت أطيانهم بأبخس الاثمان . وما في ذلك من العبر

ان العالم يسير اليوم على نظام اقتصادي أصبح ثابتا وليس من السهل زعزعته بين يوم وليلة . ولكنه على أي حال نتيجة اعتماد الناس على تفكيرهم . ولكنهم أيضا يلجئون الى التخلص منه من طريق التجارب وهم يقتربون نحو الحقيقة بخطوات وئيدة .

الفصل السابع

تعليقات المستشرقين على التوحيد . وحياة محمد

لقد رأيت في الفصول السابقة أثر التوحيد في تحرير الفكر ، ومنع الوساطة بين الله وبين الانسان وان من مبادىء الاسلام ان يشعر الانسان بكفايته وقدرته العقلية على الفهم ، والمساواة بين الناس أجمعين ، وتحديد العلاقة بين الناس . واجب صاحب السلطان نحو رعيته ، وواجب الرعية نحو الراعي ، كما يتجلى في كتاب سيدنا علي كرم الله وجهه « وقد تقدمت نبذة منه »

هذه المبادىء لا ترضي المستشرقين ، وليس من صالح الامم الغربية أن يعرفها أهلها حتى لا يندفعوا أيضا الى تلك المبادىء . ومن هنا كان عمل المستشرقين مزدوجا به تشويه الاسلام ، وتغيير أوروبا وحمايتها منه

ولذلك رأينا من فلاسفة أوروبا آراء أقل ما نقول فيها إنها عربدة في قالب مزخرف وجهل في ثوب منمق

فانظر الى رينان في كتابه عن ابن رشد ومذهبه اذ يقول : (ان خواص النفس السامية (أى التى منها العرب) تتجلى في انسياق فطرتها إلى التوحيد من جهة الدين والى البساطة في اللغة والصناعة والفن والمدنية ، أما النفس الآرية (التي منها أوروبا) فيميزها ميل فطري الى التعدد وانسجام التأليف)

وكثير من المستشرقين على هذا النمط المضحك من الاستنتاج ويريدون بذلك أن يقولوا إن دين العرب على قدر عقولهم

وليس أدل على عدم المنطق واغفال الحقائق في هذا القول من أن العرب قبل الاسلام كانوا مشركين غاية في الشرك فكيف اتفق ذلك مع ميولهم ولماذا

قاوموا الدعوة الاسلامية في مبدئها وكيف وصفوا في القرآن بقوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون)

وكان من شرك الجاهلية أن تلبيتهم في حجهم كانت الشرك المجسم فكانت قبيلة نزار تقول :

لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك
تملكه وما ملك

(راجع كتاب الاصنام)

ثم ارجع معنا إلى الفصل السابق من التوحيد وتدبر معنا سر الوحدة العربية وان الاسلام طبع الامم التي انتشر فيها بالطابع العربي وان لم يكونوا من المسلمين وليس أدل على العدل المطلق من أن يتكافأ الشخصان على تباين دينهما أمام الاسلام في القضاء . وأن لا يكون للمسلم ميزة على غيره كما سبق

هذه المسألة وهى التوحيد في المعاملة والتوحيد في النظر الى الاجناس المختلفة في ظل الاسلام لا ترضي جماعة المستشرقين لانهم طلائع التفريق وتشتيت الوحدات العربية والبلاد الاسلامية

فاستغلوا علومهم في البحث والتنقيب واختراع النظريات الملفقة والدعاوى المشعوذة فهاجموا أسماء قواد المسلمين وعظماء الفاتحين وأخذوا ينسبونهم الى غير العرب وغير الاسلام

وبذلك أصبحنا نقرأ من نفثات أقلام المستشرقين مباحث علمية عويصة ـ اقرأ واعجب ـ أن أهالى مراكش من البربر ماعرفوا الاسلام وما آمنوا به في يوم من الايام وانهم ولا زالوا غير مسلمين وان العرب الذين فتحوا الاندلس وغزوا فرنسا وايطاليا كانوا مسيحيين وان طارق بن زياد القائد العظيم والذي رفع منار الاسلام في الاندلس لم يكن عربيا ولا مسلما ولكنه كان بربريا مسيحيا ـ

وقد استعمار جيرو هذه النظرية للاصلاح القانوني في مراكش (راجع تقرير لجنة العمل المغربي المقدم للمؤتمر الاسلامي ببيت المقدس صفحة ٤)

وليس من غرضنا أن نتكلم في موضوع السياسة والاستعمار ولكن هذه النظريات ليس الغرض منها سوى تشتيت الامم وتمزيقها وخلق عصبيات متعددة فيها مما أصبح مألوفا لدى كل من له أقل المام أو اطلاع على تاريخ الاستعمار وطرق استثمار الخلافات في الجنس والدين

أما وحدة اللغة العربية فقد عمل المستشرقون كل ما يمكن عمله لتشويهها واظهارها في مظهر أضعف لغات العالم . وان اللغات واللهجات العامية خير منها استعمالا .

وصار يعدها المستشرق برينو اللغة اللاتينية للعربي ، ويقول عنها في مقدمة كتابه الذي يدرسه الطلبة الفرنسيون باللغة العربية

« أتريد ياصاح أن تتعلم الكلام مع الاهالى الذين حولك ... »

الى أن يقول لا تظن « انني سأعلمك لغة القرآن فهذه اللغة قد ماتت ولا يتكلم بها أحد فهي لاتينية العربي . وهي اللغة المستعملة في جنة محمد وسأحبب اليك دراستها في المستقبل اذا أردت أن تتذوق حلاوة الاجتماع بالحور العين »

وبهذه الطريقة أصبح المستشرقون يناصبون اللغة العربية الفصحى العداء فيتشككون في النثر الجاهلى والشعر الجاهلى ويلقون الشك في كل شيء يتصل باللغة العربية ولهم في ذلك مباحث أقرب للتهريج منها الى العلم الصحيح ولمرسيه في ذلك آراء منقوضة وأفكار مردودة (راجع كتاب النثر الفنى)

بقيت مسألة القرآن الكريم الذى هو الدعامة الثابتة التي عجز العالم عن التحرش بها . والصخرة العظيمة التي اذا أراد أكبر مستشرق أن ينطحها تكسرت جمجمته قبل أن يصل الى حرمها ، ولذلك رأينا آراءهم في ذلك تهريجا وشعوذة

هاك المستشرق مرجوليث أستاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد لم يترك نقيصة في العالم الا نسبها لسيدنا محمد ولم يترك فحشا من القول إلا نسبه للقرآن واليك أمثلة من ذلك

قال في صحيفة ٢٣٦٤ من تاريخ العالم العام ما يأتى :

« وان كان محمد لم يترك تاريخا مفصلا لحياته إلا أن في القرآن كل عواطفه وإحساسه . والقرآن كسجل تاريخي ليس مرتبا حسب الحوادث والتاريخ ثم يقول

« وربما كان الكثير منه مما لم يتذكره الرواة تماما عند روايته وقد يكون بعضه دخيلا في عصر متأخر وبعضه مسلم به أنه في عصر الرسول ولو انه نسب اليه خطأ »

ثم يستفرغ مرجوليث من فيه كل انواع المطاعن فيقول من المشكوك فيه اننا لا نعلم اسم والد النبي لان لفظة عبد الله معناها في العهد الاخير الشخص المجهول وربما كان لها هذا المعنى عند إطلاقها على والد النبي وقصة يتمه التي وردت في القرآن لا يلزم أن نأخذ بها على معناها الادبي .

والعلاقة المفروضة بين أمه وبين أهل يثرب مسألة مشكوك فيها كالقصص التي جعلت الاسكندر الاكبر فارسيا أو مصريا بالنسبة لوالدته

إلى هذا الحد بلغ ذوقه وأدب المستشرقين عند كلامهم عن رسول الله ﷺ وأن الحياء ليمنعني أن أذكر المعنى العادي الذي قصده مرجوليث من قوله (ابن عبد الله) نسبه إلى الاب المجهول ومع ذلك يعجب بعض الناس بالمستشرقين وهم لا يعرفون من أمرهم شيئا

وانتقدنا طريقة مرجوليث هذا في هذا النوع من التهريج العلمى من غير سند أو دليل والقائه الكلام على عواهنه من غير اثبات فهذا — الخواجه — قال إن القرآن ملفق . وقال إن سيدنا محمداً — على أبسط تعبير — لا يعرف له أب أو أم

ونشرنا هذا الرد في مجلة المعرفة فأرسل مرجوليوث خطابا يعلق فيه على ما قلنا هذا نصه (١)

أما ما كتب الدكتور حسين الهراوي في ذم المستشرقين فلو كان ما أودع مقاله من الشخصيات تلق بالآداب لم يكن مايمنع من الخوض في الموضوع والتمييز بين الخطأ والصواب ، أما المسائل التي ذكرها فلست أرى فائدة في مداخلتها ، لانها أقرب إلى منابر الخطباء منها إلى مجالس الادباء

د . س . مرجليوث

وردا على ذلك نقول إننا تناولنا من آراء مرجوليث مسألتين مما كتبه في تاريخ العالم العام فى الفصل التاسع والثمانين

الاولى أنه ذكر عن سيدنا محمد انه مجهول الاب والام

والثانية قوله إن إعجاز أسلوب القرآن يفسر إما بأنه لايمكن تقليده ، أو الاخبار بأمور يمكن التحقق منها — ولم يكن للنبي وسيلة لمعرفتها وأننا نعلم من القرآن أن كلا من هذين الادعائين — عندما أذيع — لم يسلم من النقد فالامر الاول أن الذوق الكتابي يختلف كباقي الاذواق وعن الامر الثاني لوأنه وجدت وسيلة للتحقق من صدق النبي فهذا يفهم منه أنه أمكنه بنفس هذه الوسيلة معرفة الامر الذى ذكره

وكذلك قال مرجوليث ، إن محمداً اعترف في مبدأ رسالته بمعرفة القراءة والكتابة :

ولنناقش مرجوليث الحساب في هذه المسائل التى يرى أن ردنا عليها فيما مضى أقرب إلى منابر الخطباء منه الى مجلس الادباء

---

(١) المعرفة فبراير سنة ١٩٣٣

أي بعبارة أخرى ليس له علاقة بالادب العربي ولا بعلم من العلوم فاما عن والد سيدنا محمد فنحن ننكر على أدب أستاذ في جامعة اكسفورد ان يوجه مثل هذا الطعن في نبي يدين بدينه ملايين المسلمين . وان يتفوه بتهمة تترفع ابسط قواعد الآداب الاجتماعية العامة عن ان توجهها لاقل الناس مركزا - وثانيا - ان مرجوليث لا يعرف شيئا عن الادب ولا الادب العربي . والا لعلم ان العرب كان فيهم نسابون ولو انه تكلم أولا عنهم — وعن مصادر الشك في أقوالهم وتذبذبهم — لكان لنا ان نناقشه بالادلة العلمية أما وهو لم يذكر شيئا من هذا فدليل على انه لا يعرفه — وثالثا — لان جد محمد عليه السلام وعمه هما اللذان كفلاه صغيرا ولو كان مجهول الاب ما عرف له عم ولا جد وهذا يدل على ان مرجوليث لا يعرف شيئا من تاريخ سيدنا محمد عليه السلام —ورابعا— ان عصبية محمد عليه السلام حمته في مبدأ رسالته ولو كان مجهول الاب ما كانت له عصبية

فاذا كان مرجوليث لا يصدق شيئا من ذلك ولا بد ان يكون قرأه . فليقل لنا هو كيف يريد ان نصدق كلامه . وكيف امكن وجود أشخاص تربطهم بالنبي الكريم صلات العصبية حتى بعد الاسلام . اذا كنا ننكر كل ذلك لان مرجوليث قالها إذن فعلى العقول السلام .

ثم فليفسر لنا مرجوليث كيف مكنته نفسه وكيف مكنه ضميره ان يقول هذا . وعلى أي المراجع الموثوق بها عول في بحثه فهو اما لا يعرف شيئا مطلقا واما يريد التشهير والتشنيع ! وهذا مالا يشرف الباحثين .

ثم فليجبنا .. أليست الانساب والنسابون جزءا من صميم التاريخ والادب العربي أم هي ضروب من خطب المنابر ؟!

واذا كانت ضروبا من خطب المنابر فكيف حفظ التاريخ انساب قوم لم يكن لهم مرتبته عليه السلام من الوجهة الاجتماعية والاثر الخالد

وكيف امكن معرفة نسب والدته وزوجه خديجه ؟ ثم كيف امكن تنسيب شعراء مشهورين مثل امريء القيس وغيره . ؟

أما القول في مسألة اعجاز اسلوب القرآن بانها مسألة ذوق فاني أرى ان مرجوليث - كما يستدل من اسلوب خطابه - ذو اسلوب ملتو ركيك يجعله آخر شخص يؤخذ برأيه في مسألة الذوق الكتابي بعد ان تحدى القرآن نفسه الناس كلهم بل الانس والجن مجتمعين ان يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا . فلم يبق في نظر صاحبنا مرجوليث الا نقد الاسلوب بميزان الاذواق التي تختلف دقة ورقة .

ونحن معه على ان يكون الشرط الاساسي ان تكون هذه الاذواق سليمة تتفهم روح العربية . والمستشرقون هم ابعد الناس عن تفهم تلك الروح ولهذا فانهم ينشرون مؤلفاتهم باللغات الاجنبية . وان كانت بعض مقدمات الكتب التي طبعوها قد كتبت باللغة العربية إلا ان الحكم على أساليبهم قد لا يرضيهم من الادب الكتابى الفني

واذا كان مرجوليث حصر اعجاز القرآن فى الاسلوب والاخبار بالغيب فقد فاته ان ضروب الاعجاز في القرآن كثيرة ومنوعة . وليس من موضوعنا شرحها .

على اننا نسائل أستاذ الادب الاكبر ! ما قوله دام فضله في انواع الاعجاز العلمى التى اثبت العلم الحديث مدى صدقها ونذكر منها على سبيل المثال (وجعلنا الرياح لواقح) و (خلق الانسان من علق)

أي دور الحيوانات المنوية - و (وقد خلقكم اطوارا) وهي تتمشى مع العلم جنبا الى جنب ؟

فهل كشف العلم عن اعجاز هذه الآيات إلا حديثا ؟ وهل كان الميكروسكوب « المجهر » وعلم تكوين الاجنة معروفا من قبل عند نزول القرآن الكريم ؟؟

ولا يفوتنا ان نتكلم عن النقد فالنقد هو اسهل شيء في العالم . وبابه اوسع

الابواب — فقد ينقد شخص ما الخلقة البشرية بأن عيني الانسان في وجهه وليس له مثلهما في قفاه لينظر من خلف كما ينظر من الامام ؟؟

وقد ينتقد البهلوان طريقة السير على الاقدام ويستحسن ان يمشي الانسان على يديه رافعا قدميه في الهواء . كل هذه أنواع من النقد قد يراها أهلها صحيحة ولكن الذوق السليم والعقل السليم بصفة خاصة يأبيانها على ناقد .

وهذا هو النقد الذي يوجه الى تجاهل نسب النبي العظيم واسلوب القرآن لايقصد به إلا مجرد تشهير وتشنيع

وكيف يفسر قوله تعالى (اقرأ وربك الاكرم) بانها اعتراف من النبي الكريم بمعرفة القراءة وهل هذا يدل على انه يفهم روح القرآن ؟

وقد اطيل البحث اذا استقصيت آراء مرجوليث في مصادر القرآن التي يقول بها ويقول بها معه المستشرقون الذين ينحون نحوه فقد ادعوا ان النبي عليه السلام قد درس كل الفلسفة اليونانية ثم حفظ التاريخ الفارسي ثم عرف كل الاديان الهندية القديمة كما اطلع علي كل حكم الصين واخرج من كل هؤلاء كتابا سماه القرآن .

ومعنى ذلك ان الدراسات التي استنفدت القرون الاولى حتى القرن العشرين وتخصص لها العلماء الذين عكفوا على دراسة لغاتها المتعددة والجولان بين آثارها البالية كل هذا قد تعلمه محمد عليه السلام في سياحته للشام

فاذا رجعت الى التاريخ وجدت ان هذه السياحة لم تكن إلا ثلاثة أشهر كما تقدم

فهل في هذا منطق يناقش ؟ وهل هذا اسلوب المنابر أم في صميم الادب العربي والتاريخ ؟

ولما نشرت المعرفة هذه المقالة للرد على مرجوليث . قطع اشتراكه من المجلة ولم يعد يراسل صاحبها وكان هذا هو الجواب . فتأمل !!

الفصل الثامن

حكاية فنسنك والمجمع اللغوي الملكي

سنوك هرجورونيه(١) هو رئيس أكاديمية هولاندا ومكث سبعة عشر عاما في جاوه مستشارا للحكومة في الشؤون الاسلامية. وقيل لنا أنه اتقن العربية وأدعى الاسلام وسافر إلى مكة ومكث فيها خمسة اشهر. وكان يأتم به المسلمون في صلاتهم.

وفنسنك تلميذه. وساعده الايمن الآن في هولاندا. وفنسنك رئيس تحرير دائرة المعارف الاسلامية التي ملؤها الطعن الجارح في الاسلام والحشو بأقذر المثالب. يحررها جماعة المستشرقين ومنهم مبشرون وقسس وخصوصا الاب لامانس. وتصور قسيسا مبشرا يكتب عن حياة سيدنا محمد أو عن القرآن أو التاريخ الاسلامى. وأى روح تملي عليه وأى مبلغ من المال يأخذ أجراً ؟!

ونحن نعرف الشيء الكثير عن المبشرين وطرقهم وأساليبهم وطالما تمنيت هذا اليوم الذي أقابل فيه سنوك هذا و فنسنك لاقول لهم رأيي فيهم في صراحة وجرأة وليس الاسلام يخاف عن أحد. وليس القرآن بغريب في العالم وليست العقول التى تفهم بمعدومة.

ان عصابة فنسنك في تحرير دائرة المعارف الاسلامية تكتب على أسلوب القرون المتوسطة. وتفرض على الناس فرضا أن تعلمهم كل شيء ضد الاسلام. وأن تشعوذ في التاريخ وتخترع أساليب التهريج كما شرحناه لك في الفصول المتقدمة من هذا الكتاب

واسم فنسنك دائما يتردد على لساني وأعتقد أن هذا الرجل قضى الشطر الاكبر من عمره يعمل علي السخرية من الاسلام. ولم يفضح عمله أنسان ولم

---

(١) ولد في ٨ فبراير سنة ١٨٥٧ وتوفي في ٤ يوليو سنة ١٩٣٦

ينتقد سنوك هرجرونيه ولطائفة المستشرقين تلاميذ تعلموا في أوروبا وسرقوا مطاعنهم في الاسلام وروجوها باللغة العربية في أثواب مباحث علمية فكان مقتي لهذه الفئه أشد من مقتي للخواجة فنسنك.

وصدر المرسوم الملكي ووجدت فيه اسم فنسنك، فنشرت في اهرام ١١ من اكتوبر سنة ١٩٣٣ المقال الآتي:

لما اشتدت وطأة المبشرين في الاغواء، والتضليل، وغزو عقل المسلمين بمختلف الطرق عكفنا على دراسة شيء غير قليل من طرقهم ومؤلفاتهم وخرجنا بنتيجة رسخت في عقيدتنا رسوخا قويا. هي ان المستشرقين هم طلائع المبشرين وانهم هم الذين يمهدون السبيل لتشكيك المسلمين في عقائدهم، وانهم هم الذين يمهدون للمبشرين سبيل الطعن في الاسلام وفي نبيه الكريم وانهم هم الذين يزودونهم بانواع شتى من الشعوذة العلمية باسم الاستنتاج التحليلي، والنقد الفني وحرية الفكر، والمباحث العلمية الحرة

وخرجنا من كل مباحثنا هذه الى ان المستشرقين يتعمدون عند البحث في كل ما يختص بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ان يلغموا استنتاجاتهم العلمية بآرائهم الشخصية على ما فيها من خطأ وما فيها من غرض بما تمليه عليهم روح الاستعمار ومقاومة الاسلام في شخصية سيدنا محمد ﷺ أو في القرآن نفسه

وقد قسمنا المستشرقين ثلاث فرق، قسم يختص بمباحث القرآن، وقسم يختص بمباحث سيدنا محمد، وقسم يختص بالتاريخ العربي الاسلامي

على ان من واجبنا ان ندرس كل مستشرق من جميع نواحيه وندرس كل مؤلفاته خصوصا اذا كان ممن يبحثون في القرآن أو حياة سيدنا محمد لان الخطأ اللفظي في كلمة عربية قد يجر الى البحث في العقائد الاسلامية وقد يكون له أثر شديد في الاسلام نفسه

ولقد فكرنا هذا التفكير عندما أردنا أن نباحث أحد المستشرقين أو
اشباه المستشرقين ورأيناه يقلب قواعد اللغة العربية رأسا على عقب لكى يدخل
شكا في الاسلام واليك مثلا من ذلك

كان أحدهم يدعي أن الاسماء لابد أن يكون لها معنى . فقلنا له أن الاسم
ما دل على مسمى وليس من الضروري أن يكون له معنى يشتق منه . أو أصل
معروف ، والمسألة بسيطة . هكذا تعلمنا في المدارس الابتدائية وهكذا تراها في
القاموس فأصر على رأيه . ولكنه أعطانا مثلا غريبا هو أصل كلمة (حراء) وهو
اسم الغار الذي تعبد فيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقلنا لم يرد في اللغة العربية ما يجعلني
أعرف مصدره أو معناه فقال ان (حراء أصلها (هيرا) وهولاتيني ومعناه المقدس
قلت انني أعرف ما تريد أن تستنتج . ان هيرا وهو الجبل المقدس هو اسم
أطلقه الرومان على هذا الجبل الذي تعبدوا فيه فأنت تجعله في مكان (جبل
الاوليمبيا) في اليونان ، ويتأتى من هذا الاستنتاج أن محمداً عليه السلام اتبع
الاديان الاخرى فاعطى الدليل المساوي على استنتاجك لانك تتكلم بلسان
تحركه عواطف ضد الاسلام . فسكت

والحق أن عقلية هؤلاء المستشرقين وأشباههم مدهشة فأي لفظة عربية لها
مشابه في اللغات الاخرى قالوا ان العربية استعارتها واذن فما قولهم فى لفظة
« نبل ونبيل » التى توجد في كثير من اللغات والعربية أيضا بنفس المعنى

نقول هذا مقدمة للبحث الذى سنكتبه عن فنسنك وهو الاسم الذي ورد
في ضمن أعضاء المجمع اللغوي . وسنناقش رأيه الحساب لان استنتاجاته ستؤخذ
علينا وقد أصبح عضوا رسميا علينا أن نحترم رأيه

قالت دائرة المعارف الاسلامية تحت لفظة ابراهيم :

كان اسبرنجر أول من لاحظ أن شخصية ابراهيم كما وردت في القرآن

مرت بعده أطوار قبل أن تصبح في نهاية الامر مؤسسة الكعبة

وجاء سنوك هرجرونيه بعد ذلك بزمن فتوسع في بسط هذه الدعوى فقال ان ابراهيم في أقدم ما نزل من الوحي (في الذاريات آية ٢٤ وما بعدها ، الحجر آية ٥ وما بعدها ، الصافات آية ٨١ وما بعدها ، الانعام آية ٧٤ وما بعدها ، هود آية ٧٢ وما بعدها ، مريم آية ٤٢ وما بعدها ، الانبياء آية ٥٢ وما بعدها ، العنكبوت آية ١٥ وما بعدها) هو رسول من الله أنذر قومه كما تنذر الرسل ولم تذكر لاسماعيل صلة به . والى جانب هذا يشار الى ان الله لم يرسل من قبل الى العرب نذيرا (السجدة آية ٢ ، سبأ آية ٤٣ ، يس آية ٥) ولم يذكر قط أن ابراهيم هو واضع البيت ولا انه أول المسلمين

أما السور المدنية فالامر فيها على غير ذلك . فابراهيم يدعى حنيفا مسلما . وهو واضع ملة ابراهيم رفع مع اسماعيل قواعد البيت المحرم . البقرة آية ١١٨ وما بعدها ، آل عمران آية ٦٠ الخ)

وسر هذا الاختلاف أن محمداً كان قد اعتمد على اليهود في مكة فما لبثوا ان اتخذوا حياله خطة عداء فلم يكن بد من أن يلتمس غيرهم ناصرا . هناك هداه ذكاء مسدد الى شأن جديد لابى العرب ابراهيم ، وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليتصل بيهودية ابراهيم ، تلك اليهودية التي كانت ممهدة للاسلام ، ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول أصبح ابراهيم أيضا المشيد لبيت هذه المدينة المقدس »

والذي يكون خالي الذهن عن المستشرقين واعمالهم يظن لاول وهلة أن هذا بحث جليل مستفيض استقصى اصحابه سبرنجر وسنوك وفنسنك كل آيات القرآن واستخرجوا منها مواضع الضعف ، ويخيل الى الناظر في هذا الموضوع ان الاسلام قد زعزعت اركانه وانهم اكتشفوا أكتشافا من

الخطورة بمكان حين يدعون أن محمدا عليه السلام أراد استغلال اليهود ثم أخفق ثم هداه ذكاؤه المسدد لشأن جديد لأبي العرب

اما اليهود فقد سبق ان شرحنا مركزهم في الكلام عن الوسط والبيئة التي سبقت الاسلام ، وأما هذه القائمة الكبيرة من الايات التي تخدع الناظر اليها فهي في نظرنا دليل على الضعف المطلق وهم بهذا أشبه بما يفعل الممثلون ، اذا وجدوا الرواية ضعيفة جعلوا المناظر أخاذة ، وأكثروا من أشخاص الرواية ودفعوا بين الجماهير قوما مأجورين للتصفيق

كل هذا فكرنا فيه قبل أن نتقدم لنقد هذا البحث لاننا نعرف طريقة المستشرقين الملتوية وشعوذتهم العلمية

وما علينا الا أن نراجع السور المكية جميعها والسور المدنية جميعها ونوازن بينها لنعرف اذا كانت السور المدنية هي وحدها التي انفردت بذكر نسب سيدنا محمد الى سيدنا ابراهيم بأبي البيت العتيق أولا ؟ وفيما اذا كانت الحقائق التاريخية التي في متناول يدنا تتفق مع استنباط فنسنك أم لا . وما غرضه في التعريض بسيدنا محمد الى هذه الدرجة ؟؟

علينا اذن أن نراجع كل ذلك لنتمشى معه في بحثه فان كان ما قاله حقيقيا كان لنا أن نبحث فى استنباطه أيضا وعن السبب في عدم ذكر تلك الصلة في السور المكية اذ ربما كانت من المعترف بها ولا توجد مناسبة لتوكيدها في القرآن . أما اذا كان ما نقل من الآيات خطأ كان الرجل قد عثر من أول الطريق فلنتركه في تلك الحفرة التي وقع فيها ولننظر اليه كيف يجاهد في الخروج منها

ونحن لا يخامرنا شك في أن هذا الدين متين وان فنسنك وسبرنجر وسنوك أقل علما بفهم روح القرآن فضلا عن نقده

اذن فلنسر في البحث على بركة الله

قال فنسنك : — انه لم تذكر في السور المكية صلة لسيدنا اسماعيل بسيدنا ابراهيم . فهل هذا حقيق ؟ وذكرنا سورة الانعام بالنص فهل هذا حقيقي ؟ لقد ذكر لآية الرابعة والسبعين بالنص أيضا فانظر الى الآية الخامسة والثمانين حيث ذكر اسماعيل صراحة «واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين» نعم ان أسماء الانبياء وردت جملة ولكن الكل واحد منهم نسبه المعروف . والمسألة الجديرة بالنظر هي لماذا حذف فنسنك رقم هذه الآية من تلك القائمة الطويلة التي استقصاها مع انها في نفس السورة التي ذكرها ؟ الجواب سهل وهو انها تهدم نظريته من أساسها . ولان هذه الآية نسبت هؤلاء الانبياء الى ابراهيم ثم الى نوح

ثم انظر الى سورة ابراهيم وهي مكية الآيتي ٢٨و٢٩ وانظر الى الآية ٣٤ وما بعدها حيث يقول ابراهيم :

«ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم — الى قوله تعالى — الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل»

اذن فقد ورد في السور المكية التي اعتمد عليها فنسنك أن اسماعيل هو ابن ابراهيم وان ابراهيم دعا ربه عند بيت الله المحرم وقد ذكر هذا البيت في السور المكية التي أنكر وجودها فنسنك

نحن لا ندهش من اكتشاف الحقيقة فما كنا نشك فيها ولكننا ندهش أن قوما ينتسبون للعلم ويخدعون الناس جهلا أو تجاهلا

المسألة الثانية :

هل ورد في الآيات التي ذكرها فنسنك أن الاسلام دين قديم بمت الى ملة ابراهيم ؟ واذا كانت هذه الحقيقة قد وردت فلماذا لم يذكرها فنسنك ؟

ارجع الى نفس السور التي ذكرها فنسنك ففي الذاريات في الآية ٢٣ وما بعدها تجد حديث ضيف ابراهيم المكرمين يبشرونه بابنه ويقصون عليه قصة

لوط ومدينته وفي الآية ٣٤ يقول « فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين »

اذن ففي هذه الآية اعتراف صريح أن الاسلام دين قديم . هو ملة ابراهيم حيث يحدثه ضيفه عن بيت المسلمين :

اذن فدعوى فنسنك كلها خطأ . واستنتاجه كله خطأ

المسألة الثالثة :

يقول فنسنك أن آيات السجدة وسبأ ويس تشير الى أن الله لم يرسل من قبل للعرب نذيرا . ولم يذكر قط أن ابراهيم هو واضع البيت ولا انه أول المسلمين :

يريد فنسنك أن يقول بعبارة أخرى أن التاريخ المأخوذ من الاناجيل هو الحقيقة . وان ابراهيم لم يذهب الى مكة . وان هذه الدعوى لم تذكر في القرآن الا بعد الهجرة الى المدينة

وسياق هذه السورة من الآية ٣٤ وما بعدها :

« واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الاصنام ، رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني . ومن عصاني فانك غفور رحيم ، ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم . وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »

هذا يدل دلالة واضحة على أن ابراهيم كان أول من أسس هذا المكان المنعزل السحيق في واد غير ذي زرع لا تهوي اليه أفئدة الناس . ولا رزق فيه فدعا ربه : فاستجاب له

على انه يؤخذ من ذلك أيضا أن هذا كان أول عهد هذا المكان بالانبياء

وبتأسيس البيت ولم يذهب ابراهيم ليقيم دينا جديدا بين الناس في بلد آهل وهذا يستقيم مع معنى آية ٤٣ من سبأ في قوله تعالى « وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير » !

يكفي أن نذكر لفنسنك انه لم يذكر الحقائق . ولم يستقص مبحثه . وانه يستنبط قبل أن يبحث

أما الغرض من ذلك . فواضح لان الاستشراق مهنة ضد الشرق . وضد الاسلام

الفصل التاسع

حكاية فنسنك «١»

﴿ المقال الثاني ﴾

اذا قلبت أي كتاب اجتماعي أو عمراني باللغات الغربية يتكلم عن مصر أو الشرق أو الاسلام وجدت أشياء كثيرة لا يقرها عقل ولا يستسيغها منطق وليست من الحقيقة في شيء

ويوجه نظرك بصفة خاصة ما يوصف به الاسلام من الصفات التي لا تنبو عن قواعد الذوق السليم والحقيقة فحسب . بل ان الكتاب الاوروبيين يصورون الاسلام بصورة بشعة قبيحة لا تكاد تقرؤها حتى يقشعر بدنك من هول ما تقرأ

فاذا كنت شرقيا صميما أولت ما يكتب في تلك الكتب الاجتماعية بانه جهل من المؤلفين بأحوال الشرق وعاداته . واذا كنت مسلما أسفت كثيرا أن يوصف الاسلام بصورة بشعة بعيدة عن الواقع وأسفت على أن الاوروبيين لا يعرفون شيئا عن حقيقة الشرق بصفة عامة وعن الاسلام بصفة خاصة فليس حقيقيا ما ذكره مارشال في كتابه « الزواج » أن الام في مصر لا يباح لها أن ترى وجه ابنتها بعد سن الرابعة عشرة من أثر الحجاب فى الاسلام

وليس صحيحا ما جاء فى هذا الكتاب أيضا من أن الفتاة الريفية المصرية يباح لها أن تعري جسمها كله أمام الرجال أما وجهها فلا يراه انسان

«١» ملخص مقال ٣٠ اكتوبر فى الاهرام وأول يناير سنة ١٩٣٤ فى الهلال

وليس صحيحا ما وصف به الحجاب وما ذكره عن تمدد الزوجات . كما جاء في كتاب « نسبت عن الزواج والوراثة »

وليس صحيحا أن سيدنا محمدا كان رجلا شهوانيا محضا يشبع شهوات الشيخوخة بزواجه بالشابات « كما جاء فى هذا الكتاب »

فأول ما نلاحظه في تلك الآراء انها مجرد تشنيع خال من الحق ومن العدل ويتجلى فيها سوء النية تجليا لا يقبل تأويلا أو تعليلا . ولا يمكن الدفاع عنه

ومن محاسن الكتب الافرنجية انها تكتب المصادر التي اعتمدت عليها في ابداء رأيها وتشير الى المراجع التى استقت منها تلك المعلومات . وكنت اتتبع تلك المراجع فأجدها راجعة الى بيئة واحدة هي جماعة المستشرقين

وفي الادب الافرنجي الحي كتب قيمة جدا تبحث في التاريخ العام والخاص وتاريخ الامم والنهضات العلمية . وهذه الكتب محترمة عند الاوروبيين فكنت أطالع فأجد فرقا كبيرا فيما تكتب من التاريخ القديم أو الحديث بلباقة ودقة علمية كوصف مصر القديمة وآثارها وسوريا وتاريخها . بل رأيت في تلك الكتب تاريخ بلدان ورسوم أماكن لا تستطيع أن تعرف موقعها على الخريطة ما لم ترجع الى معجمات مطولة ، وبين ما تكتب عن الاسلام ونبيه

فاذا تكلمت عن الاسلام والمسلمين أو عن حياة سيدنا محمد أجد تحريفا ظاهرا وكذبا واضحا . وتهريجا قبيحا

وانظر الى مرجوليوث حيث يقول : ربما كانت الطبيعة الجغرافية أو المناخ الاقليمي هو السبب في تأخر المسلمين ولكن نظرية وجود رجل واحد « أي سيدنا محمد » يكون هو وحده الرسول بين الله والناس ويكون هو وحده آخر طريق لهذه النظرية هى ثاني سبب لتأخر المسلمين »

فمرجوليث لا يقول هذا لانهاض المسلمين ولكنه يقول هذا تشنيعا وهو

الذى لم يترك نقيصة إلا ألصقها بالاسلام من غير سبب وها هو ذا كما ترى يتخيل نفسه على الاقل موزونا أو معقولا فيتكلم عن الاسلام . ولكي تفهم مقدار تحصيل مرجوليث هذا للغة العربية نأتي لك بالمثل الآتى الذي ساقه صديقنا الدكتور زكى مبارك

فقد تعرض مرجوليث لشرح هذه الابيات

يقول لي الواشون : كيف تحبها؟ فقلت لهم: بين المقصر والغالي
ولولا حذارى منهم لصدقتهم وقلت هوى لم يهوه قط أمثالي
وكم من شفيق قال مالك واجما فقلت: اني مالي وتسألي مالي

والشطرة الاخيرة من هذه الابيات فيها خطأ كتابي فقط وصحته (فقلت ترى ما بي وتسأل عن حالي) ولكن مرجوليث العالم الضليع الذى ينتقد القرآن وأسلوبه ويتعرض للنبي ﷺ ويحقق تاريخ آبائه فيقول :انه ابن عبد الله يعني لرجل المجهول هذا العالم العلامة والحبر الفهامة يقول إن الشطر الاخير صحته:

(فقلت أنا مالى وان تسألى مالي)

وليس هذا التصحيح هو المضحك وحده وان كان اشنع من الغلط الاول ولكن المضحك حقاً أن يكون المصحح أستاذ لغة عربية ويتعرض لاسلوب القرآن أو يدعي نقده!!

ولسنا في مقام الرد علي أسباب وعوامل تأخر الامم الاسلامية فلدى المستشرقين أنفسهم الاسباب

***

والظاهر أن المستشرقين جمعية دولية حتى إذا ألف مستشرق كتابا أو كتيبا ظهر في ثلاث لغات حية دفعة واحدة في فرنسا وانجلترا وألمانيا مع أن طبع هذه الكتب قد يستنفد كل ثروة المستشرق في الطبع والمدهش انك ترى في

مقدمة كل كتاب مستشرق قائمة بأسماء الذين عاونوه وساعدوه في البلدان الاخري

واني لاعلم أن المستشرقين تنقصهم في مباحثهم عن الاسلام الروح العلمية وأن لهم في الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم . وهي أنهم يفرضون فرضا ثم يتلمسون الدليل عليه فاذا وجدوا في القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه والتمسوا الآيات التي تتناسب والمعنى المراد ولا مانع من بترها اذا اقتضى الحال أو تحريف معناها حسب الرغبة فيخرج القاريء من كلامهم وهو يتهم الاسلام بالتلفيق كما يقولون كما سبق شرحه في كلام مرجوليث .

بمثل تلك النواحي التي ألفناها أصبحنا لا نقرأ لمستشرق شيئا إلا ونحن نحرص على تفكيرنا وان نعنى بتعرف الغرض الذي يرمي اليه قبل أن نثق بما يكتب وأن نقتفي أثره فيما يبحث وفي مستنداته لانه دائما يبتر الحقائق فيقول ان القرآن فيه آية (لا تقربوا الصلاة)

وسنعطيك مثلا آخر فيما قال فنسنك تحت كلمة كعبة في دائرة المعارف الاسلامية صفحة ٥٨٧ النسخة الانجليزية .

« نحن لا نعلم شيئا عن شعور محمد الشخصي في شبابه نحو الكعبة أو العبادات المكية ولكن المفروض انه لم يشذ عن الجماعة

« وان ما ذكر في سيرته عن هذه المسألة مدة وجوده في مكة لا يوثق من جهة القيمة التاريخية

« وان الآيات المكية لم تخبرنا شيئا عن هذه العلاقات في تلك المرحلة الهامة من حياة النبي . على انه لم يظهر حماسته في حادثة نحو الحرم المكي . وفي المرحلة الاولى بعد الهجرة كان محمد في شاغل بمسألة أخرى مختلفة عن هذه جد الاختلاف . ولكن أخفقت العلاقات الطيبة المنتظرة مع اليهودية واليهود . وهناك حصل تغيير حيث أنه — بعد مضي عام ونصف عام على الهجرة ذكرت الكعبة

وذكر الحج في الوحي

« وأول مظهر من مظاهر التغيير كان وجهة القبلة . فلا يتجه المؤمنون في صلاتهم الى القدس بل الى الكعبة — (قد نرى تقلب وجهك في السماء — الآيات) ومن الوجهة الامرية فان هـذا التغيير في القبلة برر بانه استئناف ملة ابراهيم — وهي — أي ملة ابراهيم — اخترعت خصيصا لهذا الظرف (السورة ١٢٩ — آية — و٣ — ١٩ — كما بين سنوك هرجرونيه

« وقبل أن ملة ابراهيم هذه كان اليهود قد أخفوها ثم أظهرها محمد ومن ثم ادمجت فيها عبادات مكة »

وبعد . فقد انتهت الفقرة التي ننقلها من دائرة المعـارف الاسلامية بقلم فنسنك ، فلنتعرف أغراضها ومراميها وحقيقتها

وأول ما يعترضنا عند النظر الى هذه الفقرة أن فنسنك رجل مقلد في السب والشتم والهجاء وان تقليـده أعمى يقوده عكاز ضعيف من الاطلاع السطحي والظاهر انه في هذه المسألة يتبع آراء سنوك هرجرونيه ويتلمس أدلة جـديدة ليضيفها الى أدلة أستاذه السخيفة

والمدهش أن هؤلاء المستشرقين يختلفون في كل شيء الا في هجاء محمد عليه الصلاة والسلام

فهذا فنسنك يقول : انه لا يعرف شيئا من شعور محمد عليه الصلاة والسلام نحو الكعبة في شبابه وبعد رسالته إلا بعد الهجرة بعام ونصف عام وان ما لديه من تاريخ حياته عليه الصلاة والسلام لا يصح أن يؤخذ أساسا تاريخيا

وزميل له في الاستشراق هو اميل درمنجهام يزعم أن محمدا كان يتعبد على مبادىء اليهودية أو النصرانية

ومرجوليث يقول ما قاله مالك في الخمر

فانت ترى انهم قد اختلفوا في أسانيدهم التاريخية واتفقوا على ان محمدا عليه الصلاة والسلام كان يخترع ويدس ويطلب علاقات اليهود . صدق الله العظيم فقد قال وهو اصدق القائلين في سورة الفرقان (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيراً)

وبعد : فان فنسنك تناول في هذه الفقرة عدة مسائل أولها انه نسب الى سيدنا محمد ﷺ عدم شذوذه عن الجماعة في العبادة المكية أي بعبارة أصرح — كان وثنيا قبل البعث — وان فنسنك لا يعرف شعور محمد نحو الكعبة. وهذه مسألة في رأينا مفروغ منها لان عبادة سيدنا محمد كما وردت في كتب السير الشريفة معروفة تماما فقد كان يتحنث في الغار شهرا ثم — ياخواجه فنسنك — يطوف فقط بالكعبة — ثم يوزع الصدقات (راجع ابن هشام) وقد سبق أن استقصينا تلك العبادة وطبقناها على علم النفس وعلمنا ان سيدنا محمدا كان يحترم الكعبة ويجتنب الاصنام فكانت عبادته بالغريزة والوراثة لجده الاعلى ابراهيم .

ثم عاد فنسنك الى الكلام في الآيات المكية وعلاقتها بالكعبة ونعود فنذكره مرة أخرى بالآية ٣٤ من سورة ابراهيم (وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا ـ الى قوله ـ ربنا اني أسكنت الخ) وهل يفهم فنسنك ان الحج هو استجابة لهذا الدعاء؟ ألم يكن بناء البيت في هذا المكان لغرض الحج المقبل؟

قد يحار الانسان في مناقشة هؤلاء الناس الذين ينكرون الحق مكابرة وهم يرونه رأي العين . ولكن الغرض مرض . ولعل امراضهم في ادمغتهم .

وانا اذا استضعفنا علم فنسنك فلأنه ضعيف العلم واذا أسأنا الظن في في استنتاجه فلأنه استنتاج متهم .

فهو هنا يؤمن بالاختراع في الدين ويصرح بأن ملة ابراهيم اخترعت

اختراعا . وفي مقاله عن ابراهيم يقول ان سيدنا محمدا اخترع هذا ليصل يهوديته بيهودية ابراهيم

والحق ان ابراهيم (ماكان يهوديا ولا نصرانيا) الآية

والقرآن اشرف عنصرا من اقناع فنسنك . وقد وردت في الفصل السابق الآيات التي تحدد الاسلام بأنه قديم وانه ملة ابراهيم

ولكن ظروف العرب الاجتماعية مما شرحناه في حياته عند البحث تريننا ان اليهود كانوا مكروهين وليس من أحد يحبهم لانهم استرقوا الناس بالربا ومحمد عليه السلام كان عربيا فما الداعي ان يضم اليهود اليه وان يستغل اليهود . ولو انضموا اليه فماذا كانت النتيجة المنتظرة غير كراهيته . فمحمد ﷺ لم تظهر عليه بادرة حب لليهود . وكانوا أشد اعدائه واعداء أهله . ولم يستنصر منهم أحدا ..

على ان محمدا عليه السلام لم يعن في حياته بالمادة . ولم يكن للمال سبيل الى نفسه، وقد رفض هدية اخواله في المدينة إذ رأوه في ضيق فجمعوا له مالا فرفضه فقالوا ان هذا هدية منا لانك هديتنا فاوحي اليه (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى)

والمسألة لاتخرج عن أنها دسيسة استشراقية أصبحت مفضوحة

وأما دعوى اختراع ملة ابراهيم فقد اخترعها المستشرقون اختراعا على رغم مافي القرآن من آيات تعدوها وقالوا ان الآيات المكية خلو منها . ولكن فنسنك تلقاها عن سنوك هرجرونيه، وسنوك هذا صادق لكن القرآن متهم في نظره أليس غريبا هذا ؟

صدقني أيها القاريء لقد أردت ان ارجع الى الآيات المكية التي فيها ذكر ملة ابراهيم صراحة وواضحة فوضعت يدي واخرجت المصحف لاستخرج الآيات التي تدحض حجة فنسنك وتفضحه وفتحت المصحف فاذا آيتان مكيتان.

نعم مكيتان في نفس السور التي ذكرها فنسنك الاولى آية ١٦٠ الانعام وهي « قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم · دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين »

وآية ١٢٣ النحل

(ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين)

على ان هناك غلطة علمية فظيعة هي ان فنسنك يعد دين ابراهيم يهوديا ، واليهودية نسبة الى يهوذا ويهوذا من احفاد ابراهيم فكيف يسمى دين الجد باسم الحفيد ؟

ولكن هي الشعوذة العلمية . هي منتهى معرفة المستشرقين . هي عقلية من يدعون العلم وليسوا علماء .

حاشية

بعد نشر الفصلين السابقين فى الاهرام تحدث جناب وزير هولاندا المفوض بالنيابة الى مندوب الاهرام وقال إن فنسنك اتصل به وكتب اليه أنه يحترم الاسلام . ولم يطعن فيه وانه لا حرج على الباحث العلمي أن يتحرر من القيود، ومما يثبت احترام فنسنك للاسلام عنايته بعمل فهرس للاحاديث كلها .

وكتب الدكتور زكي مبارك في البلاغ يقول إن سنوك هرجرونيه حجة الحجج في الاسلام وانه لا يضير الانسان أن يخطيء . ولا يعيب على المستشرقين أن يشطوا ويخطئوا

« * »

وعلى أي حال فقد جلونا موقفنا هذا بالنقط الآتية (١)

١ — إن من يطعن في سيدنا محمد هو طاعن في الاسلام، واذا كان فنسنك

(١) البلاغ ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٣

يدعي أنه لم يقصد الطعن فهو إنما يستهين بالعقول والافهام أيضا خصوصا بعد ما جاء في كتابه عقائد الاسلام الذي يقول في صحيفة ١٨ — عن سيدنا محمد في المدينة ما يأتي :

« إن محمداً لم يعد يذكر ما كان يقوله بمكة من تعذيب الانبياء على أيدى معاصريهم بل أصبح يذكر مسائل الغزو والاسلاب والغنائم والعلاقات مع الوثنيين وقد امتاز القرآن في آخره بالحض على اطاعة الله والرسول وأولي الامر »

وهذه الفقرة كلها تزوير علمي : بأن السور المدنية لم تخل من ترديد تقتيل الانبياء بغير حق كما في سورة النساء الآية ١٥٤ : « فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق »

والآية ٦٩ من المائدة :

[كلما جاءهم رسول بما لا تهوي أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون]

٢ — إن الحرية العلمية التى يستعملها المستشرقون هى من نوع تلك الحرية التي كتبت عنها سجينة الباستيل — أيتها الحرية كم من الدماء البريئة تهدر باسمك وتحت ستارك

٣ — اننا لا نريد أن نناقش فنسنك ولا نريد أن نجرح النظرية التى يقول بها أنصار المستشرقين وهي حرية البحث ولكن الذى نريد أن نقوله هو أن هؤلاء الناس ليسوا أمناء فيما يقولونه على الاسلام وليسوا بثقة فيما يكتبون فنحن نناقش رجلا يقول الحق أولا ثم يبدي رأيه فيه اما أن يخترع نظريات وينسب الاختراع الى القرآن ولسيدنا محمد فلا يسمى هذا علما . ونحن لم نتعلم هذا العلم . ولا نريد أن نعرفه . واذا أراد الناس أن يعرفوا كيف يستغل المستشرقون علمهم فليقرأوا كتب المبشرين ليعلموا أن كل حججهم مأخوذة من المستشرقين وليفتحوا صفحة ٢٨٨ من كتاب التاريخ السري لاحتلال انجلترا لمصر

ليعرفوا كيف فعل ادوارد بالمر أستاذ اللغة العربية في كامبردج و كيف اتفق مع قبائل الترابين

وليفتحوا مذكرات عرابي ـ كشف الستار ـ صفحة ٣٦ وليروا كيف باع المبشر المستشرق جنود مصر بالمال الى الحبشة

٤ — مهما كانت أغراض المستشرقين فاننا نعد الطعن في الاسلام أو سيدنا محمد طعنا في عقليتنا وفي أفهامنا وفي كرامتنا لانهم يتهمون المسلمين بانهم أغبياء يتبعون دينا موضوعا ونبياً مزيفاً . فنحن في هذا أيضا ندافع عن أفهامنا وعن عقولنا . وها نحن أولاء قد أظهرناهم جهلاء . دساسين

« * »

وبعد هذه المقالات . صدر مرسوم ملكي بتعيين عضو آخر خلاف فنسنك في المجمع اللغوى المصرى . وبذلك انتصر الحق علي الباطل .

الفصل العاشر

تعدد الازواج والحجاب والطلاق

سنقف في هذا البحث وجها لوجه مع جماعة المستشرقين والمبشرين واصحاب الآراء الفلسفية المتسرعة والذين يطعنون في الاسلام من هذه الوجهة فيصورون الاسلام في صورة مشوهة منفرة ومعكوسة ويستنبطون الاستنباطات الخاطئة فيظهر أنهم لا يحكمون على الاشياء حكما صحيحا لانهم يتجاهلون الحقائق ويكون مثلهم مثل المحامى الذى يترافع في القضية من جهة واحدة ويعتقد أنه ربح الموقعة فيصدر الحكم ضده.

وموضوع الزواج والحجاب والطلاق يرتبط بعلوم النفس والغرائز والعادات وعلم روح الاجتماع وتاريخ علاقة الجنسين

أما ما يخص علم النفس من الغريزة الجنسية فموضوع طويل له المؤلفات الخاصة وهى كثيرة ومنوعة ولم يتناوله البحث إلا في أوائل هذا القرن ومع جدة هذه المباحث قد أصبحنا نعرف عنها الشيء الكثير لان القدماء ما كانوا يعرفون مقدار أثر هذه الغريزة في الحياة الانسانية أو كانوا يعرفون بعض الشيء من قبيل الاستنباط فقط

فالغريزة الجنسية في رأي فرويد مصدر جميع الغرائز وانها الملهمة للانسان وتفكيره منذ وجد على ظهر البسيطة وهي التى جعلته يفكر في الحياة ويحتفظ بها ويتجه للزراعة ويستكشف النار والملبس الى غير ذلك من ضروريات الحياة.

ولذلك ترى الالفاظ الزراعية مشتقة من معبرات هذه الغريزة مثل الخصب والحرث والبذرة والماء والفاظ النار تعبر أيضا عن معاني هذه الروح الجنسية كالحرارة والولوع والاشتعال وبرودة العواطف والتهابها.

وقد اختلف العلماء والثقات في مبدأ ظهورها فقال فرويد انها تظهر في الطفل في وقت الرضاعة على شكل دور الفم كما يبدو ذلك من عكوفه على مص أصبعه أو امتصاص الثدي الصناعي ثم دور الشرج والتبرز وقد تدهش للتحليل النفسي لهذا الدور حين تعلم أن علماء النفس يعدون له واحداواربعين ظاهرة نفسية. ثم دور التبول ثم الدور الجنسي الحقيقي عند المراهقة ثم دور الحواس من سمع ولمس وبصر ويرى فرويد أن هذه الغريزة إن هي إلا منشأ جميع الغرائز والدوافع التي تسير الانسان في سبيل الحياة وأطوارها وتفسر لك ميوله سواء للفنون كالرسم والنقش والموسيقى أم لغير ذلك. كما اتضح أن معظم الامراض العصبية راجع إلى الوظيفة الجنسية وعدم توجيهها في الطريق الصواب بالتفريط والافراط كما تفسر لك أخلاق الناس في معاملاتهم. وتكشف عن سر بعض الجرائم. وإذا أعطيناك مثلا نذكر لك فريقا من الناس قساة القلوب لايعرفون الرحمة. ولا ترق قلوبهم ديدنهم البطش والسطوة ويتلذذون بتعذيب الناس وأقرب شاهد على ذلك هو نيرون الروماني المعروف فهذا الرجل مريض بمرض القسوة. والعنف أو المرض (السادي) وهو من أمراض اختلال غريزة التناسل

وبينما أكتب هذا الفصل قرأت في جريدة البلاغ (٦ ابريل سنة ١٩٣٤) ملخص قضية ثارت لها بلاد ايران من اكتشاف جريمة رجل يدعي على أصغر البروجردي قتل خمسة وعشرين غلاما بعد أن يقضي معهم غرضه التناسلي فيركلهم في بطونهم فتعتريهم نوبة إغماء ثم يحز أعناقهم. وقد وجه نظرنا أن المتهم المذكور كان يذكر سروره بعد حز كل رقبة. وكان يفاخر بانه ماهر في قطع الرقاب بقوله أنه كان يحس بلذة عظيمة عند الانتهاء من هذه العملية ومشاهدة فريسته جثة هامدة

كما انك ترى كثيرا من الناس ديدنهم الذلة والاستجداء والمهانة ولا

يستريحون حتى يلحق بهم الاذى ويستكينون للهوان ويتلذذون بالتعذيب فهؤلاء صرعى مرض آخر يقال له الماسوكيزم

كما انك ترى كثيرين من أبطال الفنون الجميلة كان مصدر نجاحهم هذه الغريزة

والموضوع الذي نحن بصدده استنفد عدة مجلدات من التآليف في التحليل النفسي فلا يمكننا بسطه بطريقة ترضينا وترضي القاريء في هذا المقام .

ولكن النتيجة التي وصل اليها فرويد وغيره من علماء النفس هي أن هذه الغريزة هي التي لها السيطرة على أدوار الحياة . وتوجيهها إلى النواحي التي ترسمها هذه الغريزه . وان أرضاءها بالطريقة المعقولة له أثره في الجسم والعقل والاخلاق والمواهب . أما تجاهلها أوسوء التصرف فيها أو مصادمتها فنتيجته اختلال عصبي وعقلي وتكوين أمراض نفسية قد يستحيل التخلص منها . وهـذا أمر منطقي فضلا عن انه نتيجة علم سليم القواعد كعلم النفس . لان الغرض من الحياة هو تسلسل النوع والجنس وحفظهما . فلا غرو أن تكون الالهامات والغرائز كلها مبنية على هذا الاساس .

وروح الاجتماع وتاريخ علاقة الجنسين قد أفاضت فيهما كتب التاريخ الشرقي والغربي ولا سيما تاريخ المرأة قبل الاسلام وبعده .

فالرومان واليونان كانوا يجعلون المرأة للاستمتاع ويضعونها في موضع إرضاء الغريزة للرجل فقط . ولم تكن عاطفة الحب معروفة لديهم بالمعنى الذى نفهمه اليوم ولذلك كثر تحليل الادباء للقصص الغرامية التي في الالياذة والاودسا . فقالوا إن غرام بنلوبا وعولس لم يكن على تلك الصورة التي يتخيلها الشعراء وأن عكوفها على الغزل لم يكن من نوع الغرام المنمق الذى نشاهده اليوم وأوجدت صورته الحاضرة المدنية الحديثة

أما في الهند فكان المذهب الهندوسي يحبب الدعارة الدينية بأوسع معانيها بهبة البنات للآلهة وتركهن في المعبد تحت تصرف المستعبدين مما لا زال باقيا حتى اليوم .

وأما في الفرس . فكانت المسألة فوضى . وأي فوضى . كان كل شيء مباحا ومسألة حفظ الانساب قد حلها قديما جماعة من فلاسفة اليابان من اسهل الطرق وبفكرة واحدة وهي عبادة الامبراطور وجعله أبا للجميع فلاضير أن يأتي الطفل من أي رجل وان يقوم أي رجل بتربيته والشائع ان الاب يدفع ابنته للدعارة فان هربت أرجعتها الشرطة الى بيت الدعارة وان يقدم المضيف السيدات الى ضيفه (١)

واذا تتبعت حياة الشعوب المختلفة والبيئات المتباعدة في مختلف اقطار العالم لوجدت ان العالم كله مسرح لظهور هذه الغريزة في مظاهر شتى . وما التاريخ القديم والحديث الا قصة تطور هذه الغريزة في اشكال مختلفة من الصور الاجتماعية فتارة تراها سافرة التهتك والتبذل وتارة تراها مقنعة وأخرى مؤتزرة بثياب الحشمة

على ان الغريزة الجنسية لها فروع أخرى . ومظاهر نفسية شديدة الوطأة في حياة الانسان . إذ بينما ترى استهتار الانسان بالاجتماعيات في سبيل إرضاء نفسه وبينما ترى الناس اخترعوا الوسائل الكثيرة في تذليل الصعوبات الاجتماعية والدينية ترى فروع هذه الغريزة شديدة الوطأة على الانسان نفسه . وتجبره على التهتك والاستهتار .

ومن أهم الغرائز التي تقاوم الاباحية غرائز حب الاسرة . وحب الاولاد والانانية الجنسية .

---

(١) جولة فى ربوع آسيا . محمد ثابت

فبينما ترى المرأة على مسرح الحياة مشاعا بين الرجال بالبيع والاختلاط العام ترى من جهة أخرى أن أنانية الرجل ودفاعه عن عرضه وشرفه يلجئه الى التفكير في وأد بناته حفظا لعرضهن وترى الاعتقاد ساد في القرون الوسطى في أوروبا ان المرأة شيء قذر وانها شر لابد منه

وكانت المرأة في بلاد العرب مشاعا ولكنها تقبل من الرجال من تحب للمعاشرة . وتجعل باب خبائها في اتجاه خاص ما دامت تريد معاشرته فاذا أتى يوما ورأى ان اتجاه بابها قد تغير . علم ان رجلا آخر حل محله . وعليه ان يعود من حيث أتى

فاذا ولدت مثل تلك المرأة أتوا بعرف يتوسم الطفل وينسبه الى من يشبهه من الرجال الذين خالطوا المرأة فيحمل اسمه وينسب اليه فاذا لم يهتد الى شبه معين سموه (ابن أبيه)

وكذلك لم يكن للمرأة عندهم حق معروف ولا قانون يحميها وانك لترى من ذلك ان المرأة في بلاد العرب كانت مطلقة الحرية في عرضها وحريتها ومعاشريها تقبل من تشاء وترفض من تشاء إلا فريقا واحدا من النساء

هذا الفريق من النساء الذي سنذكره لك له أهمية خاصة في تاريخ الاسلام وتاريخ سيدنا محمد والتحليل النفسي لحياته الشريفة فرجوان تتذكره جيداً

كانت الحرة كما رأيت لها الحرية المطلقة في الزواج بمن تشاء أو عشرة من تشاء على مذهبهم إلا المرأة الحرة التي تزوجت رقيقا . وانفصل عنها أو توفي فهذه المرأة كانت تعقد أملها في ان يتزوجها رجل حر ويقضي عليها ان تكون زوجة أو عشيرة للرقيق . وبهذا تسقط عنها اعتبارات كثيرة من حرية الاختيار . وهي ولا شك اعتبارات لها قيمتها في المساواة بين النساء وبين الناس . فهي تصبح من طبقة منبوذة بحكم التقاليد والعادات الموروثة في بلاد العرب .

وقد كانت زينب امرأة زيد بن حارثة الرقيق بنت اميمة بنت عبدالمطلب أي ابنة عمة سيدنا محمد. ولا شك انه كان يعرفها قبل الاسلام وقبل الحجاب. وانه هو كان سببا في زواجها بزيد مولاه المعتوق فهو الذي خطبها له.

ونريد ان يتذكر القاريء في هذه المسألة مسألتين لهما — كما سيأتي — نتيجة هامة جداً في تاريخ التحليل النفسي لحياته ﷺ:

(١) المسألة الاولى أن هذا الفريق من النساء كان يشبه فريق المنبوذين في بلاد الهند. والمنبوذون في بلاد الهند جماعة من فريق الهندوس يرون فيهم النجاسة. فلا يقربهم انسان ومن فروض دينهم عليهم أن يعترفوا بنجاستهم وان لا يعملوا إلا في الاقذار وان لا يتزوج منهم هيندوسي، ولا يقربهم، وأن خيالهم ايضا نجاسة وشؤم والموازنة هنا واضحة وهي أن المرأة العربية التي كانت تتزوج من رقيق أو رقيق معتوق ما كان يتزوجها أو يعاشرها غير رقيق وزينب هذه كانت من أسرة سيدنا محمد فقد كانت ابنة عمته كما رأيت

(٢) الفرق واضح بين حقوق هذا الفريق من النساء المنبوذات وبين حقوق المرأة العربية التي كان لها الخيار في الرجال ولها أن تنتخب زوجها وكان رأيها قاطعا في الانتخاب

نريد من القاريء أن يذكر ذلك لاننا سنعود اليه

ومن كل هذا يتضح أن العالم عند ظهور الاسلام كان يمارس تعدد الزوجات سواء بدين أو غير دين، لان الديانة اليهودية تبيح تعدد الزوجات إلى غير حد، وهذه نقطة جوهرية يجب أن يذكرها القاريء أيضا ليصفع بها المبشرين الذين يعترفون بالديانة اليهوديه ويعيبون على الاسلام تعدد الزوجات

أضف إلى ذلك أن الديانة اليهوديه تبيح الزواج من الاقرباء من الخاله والعمة وبنت الاخ وبنت الاخت، أما المسيحية فتعدد الزوجات فيها محرم،

والرهبنة مباحة . إلا أن الناس لم يكونوا خاضعين لهذا القانون الالهي أيضا وليس أدل على ذلك من أن فالنتيان الثاني أصدر كتابا وأمر امبراطوريا بتعدد الزوجات وظل هذا نافذا حتى عهد جوستيان الذي أبطله والتاريخ يحدثنا أن ابطال هذا الامر لم يعمل به الا فئة ضئيلة جدا من الناس

وليس في شرع من الشرائع ، ولا قانون من القوانين تحديد لحقوق المرأة في لميراث ولا في الحياة المدنية ، ولم يكن للمراة حق أو شبه حق يحدد موقفها من زوجها أو عشيرها عند وجود أبناء لها من صلبه

ولا تنس حرب الغرائز ، غريزة التناسل واستباحتها كل شيء وغريزة الانانية وحب الاولاد والاسرة

فكان العالم في حاجة الى سياج يحمي المرأة من الرجل

نقول هذا على الرغم من اننا نعيش في زمن تمخضت عنه مفاسد اباحية وتطورات خلقية سيئة . وانتشرت فكرة الاضراب عن الزواج واهمال الرجال واجبهم نحو المرأة فدفعوها دفعا الى ميادين العمل ، وأن تتلمس لنفسها مخرجا من ذلك الضيق الذي وضعها فيه الرجل وقصر عن واجبه نحوها فى حمايتها وصيانتها . فعولت على نفسها وأصبحت ترى أن حقها في العالم مساو لحقوق الرجل ، حتى فى الاعمال الشاقة

وهذا ظلم صارخ واضح . فان المرأة اذا قامت بدور الرجل في الحياة انهد صرح الاسرة وتخلى الرجل عن أكبر مسئولياته في الحياة وهى العمل لحفظ كيان أسرته وتخلص من مسئولية نسله وبنيه ، وأصبحت المرأة مسئولة عن كل ذلك .

وليس أظلم من أن تقوم المرأة بالعمل مكان الرجل ، وأن تحمل مسئولية نفسها ، ومسئولية أطفالها الذين تأتي بهم من طريق الحرية المطلقة

نحن لا نكتب هذه الفصول بدافع العقيدة الاسلامية فحسب ، ولكننا نكتب بعقيدة زادها رسوخا في نفوسنا بحث طويل واستقرار الفكر وركوزه وهي وليدة الموازنات بين عهود الانسان المختلفة والقواعد التي وضعها القرآن واننا لنرى من التحليل النفسي لحياة سيدنا محمد ﷺ اعجازا آخر لم يلتفت اليه الباحثون . هو الاعجاز النفسي والتربية النفسية ووضع حدود طبيعية للغرائز البشرية بميزان العقل والحكمة والعدل لا يمكن للانسان أن يبتكرها مهما أوتي من العقل والحكمة وانه لابد أن يكون مشرعه هو المثل الاعلى في الوجود وهو فوق ادراك البشر فاذا كان من اعجاز القرآن أن الآية الواحدة تفسر للجاهل ولناقص العلم ولصاحب الثقافة العالية بتفاسير يفهمها الجميع ولا يغيب عنهم المعنى فان اعجاز الاسلام النفسي هو ملاءمة هذا الاسلام للنفس البشرية في جميع أطوارها وبيئاتها وأزمنتها وهذا من أبرع ضروب الاعجاز . وهذا مثل واضح أمامنا في مسألة الزواج فالغريزة الجنسية لها مظاهر ودوافع قد مر بك شرحها وتختلف اختلافا بينا في الناس وفي الشعوب المختلفة المنتشرة على وجه البسيطة في جميع أصقاع العالم

وقد مر بك أن مظاهر هذا الاختلاف الشديد بما قدمنا من أمثلة معاملة المرأة قديما وحديثا والتماس معاذير في كل ظرف لمعاملة المرأة معاملة قاسية ولو انه في كل هذا الدور الطويل من التطور لم يوضع للمرأة حق ثابت أو مؤقت ولم تفصل واجبات الرجل نحوها ولا واجبها نحو الرجل ولذلك كان الاسلام أول من رفع قدر المرأة وأعطاها حقها في الحياة كحق الرجل . وكانت موضوع عناية خاصة في حجة الوداع جاء فيها « ان لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، واستوصوا بالنساء خيرا انهن لا يملكن لانفسهن شيئا . وانكم انما أخذتموهن بامانة الله »

جاء هذا بعدما فصلت حقوقهن في القرآن بعد زمن كانت المرأة معدة رجسا من عمل الشيطان أخرجت آدم من الجنة وانها شر لابد منه

فالاسلام جعل أساس الزواج واحدة وقيد تعدده بشروط قوية ولصيانة الاسرة والمجتمع في مختلف العصور والاصقاع

فاذا أتى المستشرقون الذين يضللون العقل الشرقي ورموا الاسلام بسوء النية بتعدد الزوجات فعليهم أن يعرفوا وسطهم وبيئتهم قبل أن يدعوا الحكمة والفلسفة ولا يجهلوا أن الناس في أوروبا وأمريكا يتقدمون إلى ميادين الاسلام بخطا واسعة ويتحررون من القيود بالالتجاء إلى الزواج المدني المؤقت أو المستديم وأعذارهم واضحة فليفسرها لنا المستشرقون وليقولوا لنا لماذا تتخذ هذه المبادىء الآن بشكل مدني وإن كان السبب النفسي واضحا جليا وهو أن النفس وحدة بذاتها تعمل كلها في وقت واحد ولها ثلاث ظواهر ادراك ووجدان وإرادة، وهذه الظواهر النفسية التي تراها اليوم في البيئة الاوروبية من تسهيل الزواج والطلاق بالزواج المدني ماهي إلا ظواهر قديمة كانت مستعملة في الماضي في الخفاء وكانت مسألة الابناء غير الشرعيين هي عقدة العقد وهكذا تطور الفكر البشري بالتربية والتعليم والثقافة إلى المبادىء الاسلامية بعد القرون الطويلة.

فالالتئام الاخلاقي والجاذبية النفسية وحياة الاسرة لايمكن أن تكون خاضعة لمبدأ واحد هو عدم الانفصال بأي حال. ولايمكن أن تضمن أخلاق الزوج ولا الزوجة. ولايمكن معرفة مدى استمرار أحد الزوجين على احترام الزواج والقيام بفرائضه.

ولذلك كانت عقدة العقد وهي الطلاق وتحريمه مسألة دقيقة لانريد أن نتعرض لما عمل في سبيلها في الاديان الاخرى كالانفصال الجسمي لمدد مختلفة من الزمن قد تطول إلى عدة سنين، وليس لنا أن نتعرض بنقد مبادىء يحترمها الناس مهما

كان رأيهم في هذه المبادي. ولكننا نقول إن الاسلام يحدد موقف الرجل من المرأة. ويحدد مدة الاختلاط وقدرة الرجل عليه بزمن خاص إلى غير ذلك من الدقائق التي تراعى في مسائل العشرة الزوجية والغرض الاسامي من الزواج

أضف إلي ذلك عوامل الحياة والاوساط والحروب وضعف المرأة الطبيعي إذا لم تكن في كنف رجل، كل هذا كان سببا في تعدد الزوجات للحاجة إلى حماية المرأة لا إلي إذلالها، لان التشريع الذي يحميها هذه الحماية هو تشريع ليس في صالح الرجل بقدر ماهو في صالح المرأة

فاذا وجدت ظروف كالتي تكون عقب الحروب، كثرت فيها نسبة النساء فليس من صالح البشرية أن تترك هؤلاء النساء نهبا أو فوضى. بل كانت توزع على الجند لحمايتهن من الفقر والفاقة والسقوط الادبي، فما الحل الذي يقترحه المستشرقون في مثل تلك الحالة إذا لم يتزوجن ؟

وإذا كانت المرأة مريضة ومحتاجة للعناية والرجل لا يستغني عمن يخدمه ويقضي حاجاته، فليقترح المستشرقون ايضا حلا شريفا لهذه العقدة

وإذا كانت العشرة خالية من الراحة والطمأنينة بين زوجين متنافرين في الاخلاق والعادات والارادة، فليقل لنا المستشرقون حلا لهذا ايضا

***

أما إذا أساء المسلم استعمال حقه واساء استعمال القانون فليس الذنب في ذلك راجعا إلي التشريع وإنما الذنب على من يستعمل المسدس لينتحر به بدلا من الدفاع عن نفسه

والحقيقة أن الاسلام نظر في هذه المسألة إلى دقائق النفوس والعلم أدق نظر ومهد السبيل لتهذيب الغريزة في حد المعقول من غير خطر على الفرد ولا المجتمع والذين يندون ويطعنون على هذه المبادىء الحق، عليهم ان يدرسوا أنفسهم

وبيئتهم وأن يعرفوا تاريخ تطور العلاقة بين الذكر والانثى ومن هذا يتضح لك أن شعوذة المستشرقين والمبشرين وتشدقهم بحقوق المرأة قول هراء بني على شيء واحد من موضوع طويل ومثلهم مثل الرجل في سفينة يستدل على أنه على اليابسة بما تطؤه قدماه من خشب صلب فاذا بالسفينة ترتطم في حجر فينقذفيها الماء فهل يغني عند الغرق أنه لم ير أبعد من ظل أنفه

والذين يلومون الاسلام على أن للمرأة في الميراث نصف حظ الرجل قوم مضحكون حقا والمدهش أن يكونوا من الاوروبيين لان الاوربيين يعيشون على نظام الوصية وكل الناس تقسم الاموال قسمة غير عادلة فتعطي أكبر أنجال الاسرة كل المال وتترك الباقي تحت رحمته والنتيجة تكون استئثار الكبير بكل شيء والباقي لايكون لهم نصيب ما في الميراث ولست أعلم لماذ لا يرى المستشرقون هذا ظلما ، ولست أدري لماذا لم تؤلف فيه الكتب بدلا من القول إن الاسلام ظلم المرأة مع أنها إذا أخذت نصف نصيب الرجل فلها من زوجها ممين وهو الذى يرث ضعف أخته .

***

على أن النفس الانسانية لها غرائزها وطبائعها وإذا تركت لها العنان تغلغلت في الشر واذا كبتها لجأت إلى البغاء ، وخير للعالم أن يعرف الحقائق ويسترشد بها بدلا من الجمود على فكرة خيالية

ولا نرى انفسنا في حاجة بعد ما تقدم إلى ذكر أسباب الطلاق وقد تكون في كثير من الاحيان رحمة ونعمة يشعر بها المعذبون

فالالتئام النفسي التام مستحيل ولا وجود له تحت الشمس وان ماتراه من وفاق الاسرة إن هو الا توفيق نسبي والاسباب الداعيـة للطلاق في كل حال تتكلم عن نفسها في كل ظرف من الظروف

فاذا كان هناك من يشذ عن العدل وعن حق المرأة الذي في عنقه فليس ذلك ذنب التشريع كما قدمنا

هذه هي المقدمة التي نسوقها لدراسة التحليل النفسي لحياة محمد عليه السلام في حياته الزوجية

وقبل أن نبحث هذا الموضوع يجب أن نشير الى أن كل من درسوا حياته من المستشرقين جعلوا من قصة زينب بنت جحش زوجة زيد مطعنا وتلمسوا من كثرة زواجه نصالا يجرحون بها الاسلام والمسلمين فاذا ما بدأنا في تحليل هذه النفسية الشريفة من هذه الوجهة فاننا نواجه بذلك عالم المتعصبين والمتشككين وعالم من يهرفون بما لا يعرفون

ولذلك نتقدم لك بفصل طبي عن الميول الجنسية

يقرر علماء التناسليات وعلى رأسهم الاستاذ فيربنجر أن الغريزة التناسلية في الرجل تبتديء في الهبوط في سن الاربعين والمباحث الخاصة في هذا الموضوع تؤيد هذا الرأي ، كما أن من اسباب هبوط هذه الغريزة كثرة أعمال الشخص وكثرة تفكيره

واذا نظرنا الى حياته ﷺ نجد أن شبابه كان مثلا للحكمة وانه لم يتزوج غير خديجة حتى توفيت ثم تزوج بعدها سودة بنت زمعة ولما هاجر بعد ثلاث عشرة سنة من نبوته لم يكن في عصمته غير هذه وعائشة رضي الله عنها . وكانت صغيرة وروي انها لم تكن الى ذلك العهد زوجة بالمعنى الذي يفهم منه العلاقة الجنسية

واذن فقد مضى زمن القوة والشباب . وكان حينذاك في الثالثة والخمسين من عمره ولم تكن تلك الميول الجنسية في أوجها بل كانت في زمن اضمحلال

وهبوط ومن الطبيعي انه اذا كانت نفسيته عليه السلام الاسترسال مع اهواء هذه الغريزة لظهر ذلك في زمن الفتوة وحرارة الشباب . ولكن رجلا يقضي أخطر أزمان حياته وهو زمن المراهقة والشباب في كمال وحشمة وفي حدود الوقار الانساني . المحافظ على أدق صفات العفاف لبعيد أن يجعل هذه الميول مصدرا للاهواء التشريعية أو الاستغلال الذاتي نتيجة الانانية الجنسية كما يهذي به المستشرقون وأذنابهم المبشرون

ولقد أفاض مؤرخو السيرة الشريفة في أسباب زواجه بكل واحدة ممن تزوج بهن مما يطول شرحه في مثل هذا المبحث ولكننا من الوجهة النفسية المحضة نستدل بأن مضي ثلاث وخمسين سنة من عمره في كمال مع ذلك العقل الجبار والعمل المجهد وقطع الليالى في الصلاة ، والنهار في الاجهاد العقلى والعملى كل هذا لا يجعل نفسا بشرية تشذ عن القاعدة الطبية والنفسية في هبوط الغريزة الجنسية لا أن ترجع الى فتوتها مع تلك الظروف المجهدة المضنية على أن هناك مسألة فنية طبية أخرى هى أن محمداً عليه السلام كان متقشفا وزاهداً لا يملك من حطام الدنيا شيئا مع قدرته في أواخر أيامه على امتلاك ماشاء وقد علمت أن الغريزة التناسلية لها ظواهر وغرائز متممة لها وداخلة في كيانها كالانانية والعبث وجمع المال وكذلك فان التغلغل في هذه الغريزة في سن متقدمة يجعل الناس يستعينون بالمكيفات والمخدرات والمنبهات الى غير ذلك من مستلزمات ارضاء هذه الغريزة . ولم يكن صلى الله عليه وسلم على شيء من ذلك

«٥»

وقد كانت حياته عليه السلام حياة صدق فليس من المعقول أن رجلا زهد في كل حطام الدنيا ووضع نفسه موضع الامام المشرع في الحقوق المدنية ويقول للناس : ان أكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس معقولا أن مثل هذا الشخص يهدم

تشريعه بتلمس أسباب وخلق مناسبات لزواج جديد ، لا سيما وان في بعض زواجه تضحية كبيرة من جانبه . كزواجه من زينب وأم سلمة التي استشهد زوجها عنها وعن أطفال وكانت شيخة جاوزت سن الشباب فلم يكن فيها أى مطمع تناسلي وإنما تزوجها ﷺ تقديراً لزوجها الذي استشهد من جرح في موقعة . وبرا بها لما كانت معروفة به من الاحسان وكرم العنصر . وهنالك مسألة أخرى غاية في الاهمية . وهي انه عليه السلام لم يتزوج بكراً غير السيدة عائشة رضي الله عنها . وهذا يدل على أن فكرة الاستمتاع لم تكن موجودة بالمعنى الذي يفهمه الرجل المزواج المستمتع . ولو كانت فكرة تزوجه الاستمتاع فقط لكان له في العذاري أرض أخصب .

ومن المدهش أن يقوم جماعة من المبشرين بتوجيه هذه البذاءات والدسائس المفضوحة ضد الاسلام في حين هم يحفظون الانجيل والتوراة وفيهما أن داود وسليمان كان لهما من الزوجات أضعاف ما أبيح في الاسلام

أما قصة زينب زوج زيد التي طبل لها المستشرقون والمنافقون ولم يشذ واحد منهم عن اتخاذها مطعنا ومن زعم في نفسه لانصاف أخذ يتردد ويتشكك وهي في الحقيقة قصة نصر المرأة ورفعها إلى الاوج الاعلى - قصة مشرفة للاسلام وهي قصة جعلت المرأة في أوج حقها المدني والشرعي ورفعتها من مركزها الذي كان في الجاهلية في الحضيض إلى مستوى المساواة بالرجال في مسائل الزواج . فقد كانت زينب الاسدية ذات حسب معرق . ونسب راق وابنة عمة رسول الله . تزوجها زيد معتوق النبي الكريم . فكان الفرق كبيرا بين حسبه وحسبها ونسبه ونسبها . والناس منذ القدم إلى يومنا هذا مغرمون بالكفاءة بين الاصهار . فلم يكن زواجها موفقا وسعي زيد في التخلص منه فنصح له رسول الله أن لا يفعل فكانت حياة الزوجية لا ائتلاف فيها .

وكان عليه السلام ينصح لزيد بابقائها في عصمته رغم انه كان يود أن يتزوج منها وهذا هو الانتصار على النفس . ومثل أعلى للكمال . فلما فارقها زيد تزوجها رسول الله فرفع بذلك من شأن المرأة وحطم الفوارق التى كانت تضعها العرب من انحطاط المرأة إذا تزوجت برقيق أو معتوق .

فاذا نظر الناس لاهمية هذه المسألة لا ٓن نظرة سطحية غير عالمين بحقيقة الموقف يومذاك فعذرهم جهلهم وعدم تقدير الظروف التي كان العرب يخضعون لها في ذلك العهد .

فزينب نفسها كانت ترى هذا الزواج عارا عليها وانه يحط من مقامها ويقضي على تمسكها بطبقتها وأنه غبن لها . وكانت تعد هذا اهانة لحريتها لانها تزوجت من غير كفء لها أفليس الاقدام على تزوجها تحطيما للارستوقراطية ووضعا للمرأة في المكان اللائق بها .

شبهنا حال النساء اللاتي كن يتزوجن من رقيق بطبقة المنبوذين في الهند . وغاندي زعيم الهندوس والهند يرى أن هؤلاء الناس مظلومون في الحياة . فاراد أن يضرب مثلا للهندوس أنفسهم — بصفته زعيما دينيا — بان طبقة المنبوذين من البشر ليسوا كما يعتقدون من الانجاس . فزوج ابنه الاكبر بواحدة من المنبوذين حتي يعلمهم أن لا فارق ولا نجاسة (١) . ولو كان غاندي لائقا للزواج وهو ابن ثمانين . وتزوج من هذه المنبوذة وهو الذي يدعونه مهاتما أو القديس لكان برهانه أقوى .

وهكذا اقتفى غاندي أثر سيدنا محمد في تحطيم القيود الاجتماعية وغاندي نفسه يعترف بالاطلاع على حياة سيدنا محمد . وانه قال قبل صيامه إنه يتشبه بنبي المسلمين فى التماس المثل الاعلى من التضحيه الذاتية — أفليس عمل محمد ﷺ

---

(١) نقلت التلغرافات يوم ٢٩-٥-٣٦ انه أسلم

تشريفا للمرأة وتشريعا للمساواة وتحطيما للتقاليد البالية الخرقاء ؟

فهل هذا محمد ﷺ (لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا)

لعمري ان الذي يبحث الاسلام على ضوء علم النفس يخرج بعقيدة ثابته هي أن حياة سيدنا محمد وتصرفاته الملهمة والوحي بها قد عاملت الغرائز بميزان العدل والانصاف ولا تدهش أن ترى ذلك متجليا في قوله تعالى [تلك حدود الله] لانك ترى من التحليل النفسي أن هذه هي الحدود المعقولة . والطبيعية للنفس والغرائز في دائرة التقدير الصحيح والمنطق الصواب الراجح ، وذلك لعمري أدق ضروب الاعجاز ، وأبلغ تقدير للحقائق البشرية

يتجنى المستشرقون على المسلمين بتهمة أخرى وهي مسائل الحجاب . وثقافة المرأة الاسلامية . والحجاب الاسلامي لم يضرب الا على نساء النبي وللمرأة أن تكشف وجهها ويديها وهذا موضوع مفروغ منه . بعد استقصاء قاسم أمين له في كتابه تحرير المرأة .

وليس من شأننا أن نعيد تاريخ المرأة الاوروبية التي كانت تعد رجسا وشرا لا بد منه فالكتب الاجتماعية مملوءة بهذه المباحث وحالة المرأة الاوروبية اليوم ليس لها علاقة بدين من الاديان ، كما أن اباحيتها يشكو منها الاوروبيون أنفسهم .

على اننا نشير هنا الى مسألة اجتماعية جديرة بالنظر والاعتبار . وهي أزمة الزواج التي فشت في العالم من استحكام الازمات المالية وكيف عالجها الاسلام

فليس من شك أن كثيرا من أزمة الزواج راجعة الى المسائل المالية . وما يكابده الزوج في الشرق من نفقة الزواج والصداق ، وما تكابده المرأة في

الغرب من جمع ثروة لتكون « دوطة » هذه الاشياء عالجها الاسلام بالتساهل التام في المسائل المادية

والقصة الآتية التي أوردها البخاري في باب تزويج المعسر فيها الف عبرة اذ ترى فيها كيف عالج الاسلام هذه المسألة . وكيف كان عليه السلام يعالج بالحكمة مشاكل الاجتماع :

حدث قتيبة قال :

جاءت امرأة الى رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله جئت أهب لك نفسي قال فنظر اليها رسول الله ﷺ فصعد النظر وصوبه ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه فلما رأت المرأة انه لم يقض فيها شيئا جلست فقام رجل من أصحابه فقال يارسول الله ان لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها فقال وهل عندك من شيء قال لا والله يارسول الله فقال اذهب الى أهلك فانظر هل تجد شيئا ، فذهب ثم رجع فقال لا والله ما وجدت شيئا فقال رسول الله ﷺ انظر ولو خاتما من حديد فذهب ثم رجع فقال لا والله يارسول الله ولا خاتما من حديد ولكن هذا ازاري قال سهل ماله رداه فلها نصفه فقال رسول الله ﷺ ماتصنع بازارك ان لبسته لم يكن عليها منه شيء وان لبسته لم يكن عليك شيء فجلس الرجل حتى اذا طال مجلسه قام فرآه رسول الله ﷺ موليا فأمر به فدعي فلما جاء قال ماذا معك من القرآن قال معي سورة كذا وسورة كذا عددها قال تقرؤهن عن ظهر قلبك قال نعم قال اذهب فقد ملكتها بما معك من القرآن »

***

هذه القصة فيها كل مشاكل الاجتماع وحلها ، وفيها مغزى واضح هو صيانة الاعراض بالزواج من أسهل الطرق . والواضح أن هذه لم تهب نفسها للنبي

صلى الله عليه وسلم الا لاظهار رغائبها من نداء الطبيعة الجنسية على شكل كله الوقار والحشمة والافصاح عن أغراضها بأشرف الطرق ولعل نظرته عليه السلام لها ثم طأطأة رأسه الى الارض تفكير في هذا المشكل الاجتماعي اذاما كانت الدوافع الطبيعية تدفع المرأة على املاقها أن تطالب بارضاء رغائبها ، والمدهش أن يقوم رجل من الاملاق إلى الحد الذي لا يجد خاتما من حديد ويطالب بحقه في الحياة أيضا وبارضاء ندائه الجنسي وهو لا يملك من حطام الدنيا غير ردائه

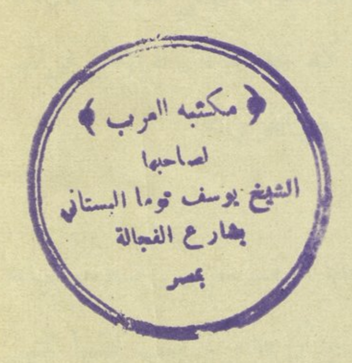
وبقية القصة تدل على أن هذين الشخصين لهما أن ينالا حظهما من الحياة على أسهل الطرق ، والمغزى كله منصب على وجوب صيانة الاعراض والنفوس من الزلل بسبب الفقر والاملاق

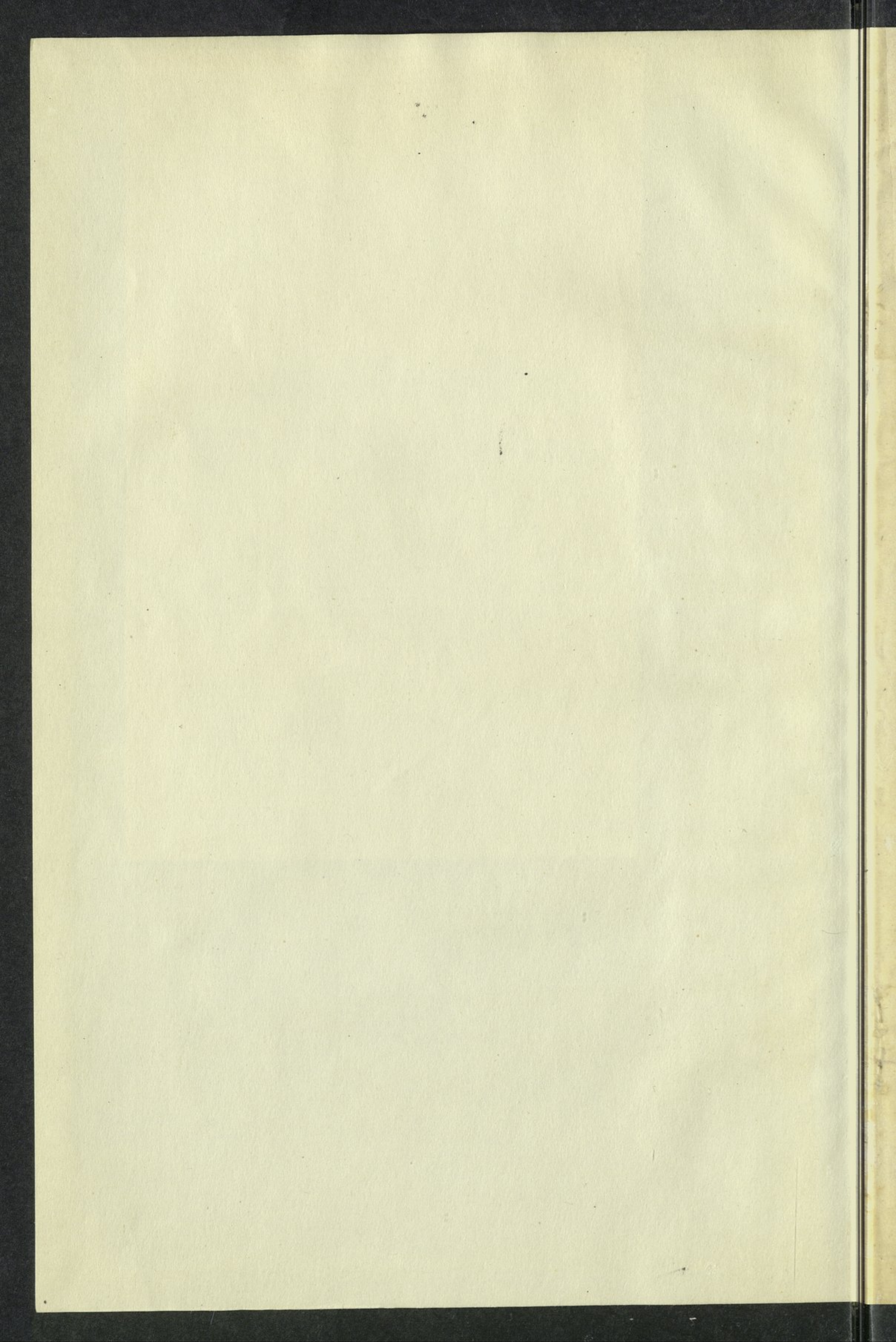
ومن هذا يتضح أن الاسلام عالج هذه الغريزة الجنسية بما ينطبق مع روح الاجتماع والنفسيات بأدق ميزان الحكمة والعقل

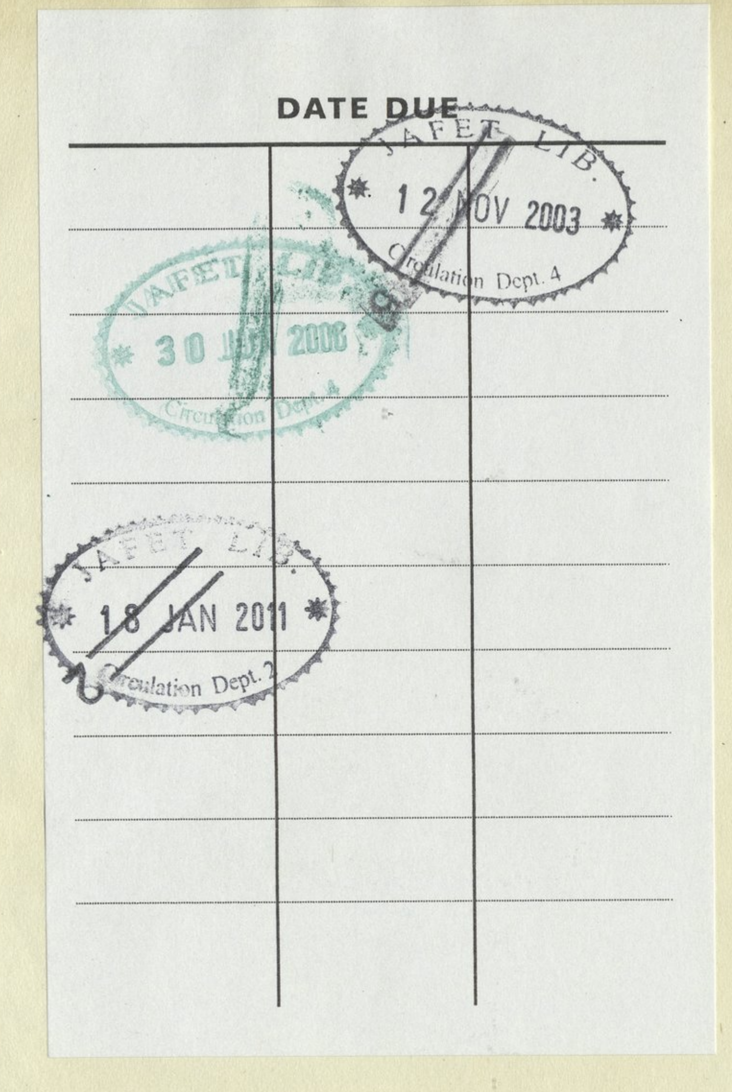
تم الكتاب ولله الحمد

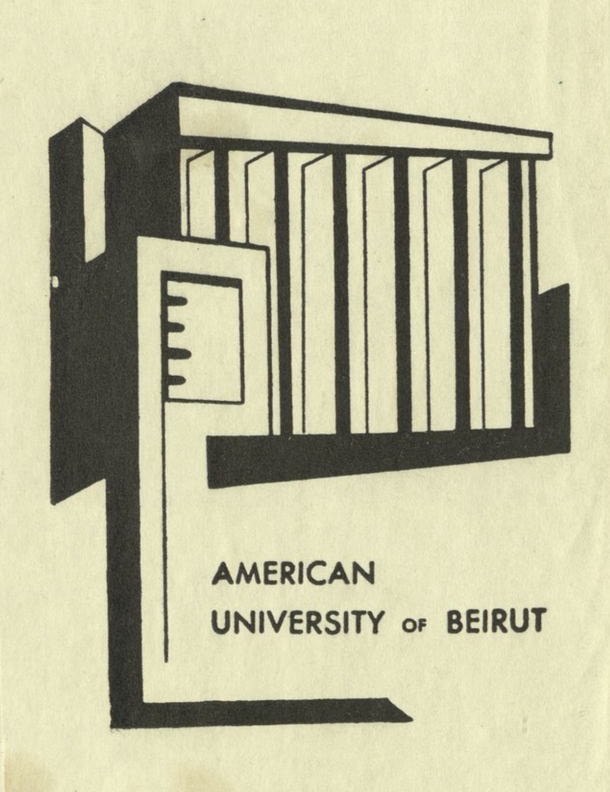
الخطا وصوابه الواقع بالكتاب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧	١	تبقى ندوبا	تبقى عليهم ندوبا
٧	١٣	يقول اذعن	يقول للعقل اذعن
١٢	١٠	ومنها	ومن هنا
٢٥	٢٠	واولر	وادلر
٢٦	١٢	الباطن	الباطني
٢٨	٧	يقتل	يفل
٣٠	١٣	تكبر	تكبت
٣٥	٢	من كل	عن كل
٣٩	٥	فهو	فهل
٤٢	٢٣	أدرن	أردن
٥٧	١٨	غم	رغم
٦٠	١٠	تخبير	تخيير
٦٨	٤	تلق	تعلق








AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT